

د. أحمد حجي



جندى مصرى

في جبهة قناة السويس



Sp
96

H

بسم الله الرحمن الرحيم

چندى مذكره

الغلاف والرسوم الداخلية : محمد حجي

جميع الحقوق محفوظة

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع



القاهرة - باريس

القاهرة: ش.م.ا.ل.ب.ب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

منزلہ کا چند روزہ سفر

د. احمد حجتی

إلى أهلي
إلى أصدقائي
إلى كل من أحبهم
أهدي هذه المذكرات
د. أحمد حجي

تقديم

كانت مهمة إعادة بناء الجبهة المصرية على الضفة الغربية لقناة السويس بعد هزيمة يونيو 1967، عملاً أشبه بالمستحيل، ومن هنا كان إنجاز هذه العملية شيئاً أشبه بالمعجزة .

كانت هذه العملية تتم في ظروف قتالية غير متكافئة ، ولا شك أن هذا هو ما ساعد على أن تبنى هذه الجبهة بكفاءة عالية مكنها من أن تتحول بسرعة إلى ند للجبهة الإسرائيلية المحصنة خلف خط بارليف على الضفة الشرقية للقناة ، ولأن نقوم بعملية العبور التاريخية فيما بعد في أكتوبر 1973 .. كان يعاد بناء الجبهة بجنود كانت تلك أول تجربة لهم في القتال ، وبأسلحة بعضها غير حديث ، فالأسلحة الحديثة التي وردت من الاتحاد السوفياتي بعد الهزيمة لم يكن قد جرى استيعابها بعد ، وكان جنود آخرون لا يزالون يتدربون على استخدامها .. وتحت قصف مستمر ووحشي من جانب العدو كامل العدة والسلاح ، قوي التحصين ، مرتفع المعنويات بعد النصر السريع الذي حققه في سيناء ، وبدون غطاء جوي ، حيث ضرب طيراننا في الساعات الأولى من الحرب ، والطيران الجديد كان الطيارون لا يزالون يتدربون عليه ، ولم يستطيعوا المشاركة به في القتال إلا في مراحل متأخرة..

ونستطيع أن نقول أن أصعب وأخطر جانب في الظروف التي أحاطت بعملية إعادة بناء الجبهة هو أن الاضطراب الفكري والسياسي الذي أحدثته هزيمة يونيو 1967 في المجتمع ، كانت آثاره تمتد إلى الجبهة .. حيث كما تشهد على ذلك يوميات الدكتور أحمد حجي ، لم تكن هناك تعبئة سياسية فعالة بين الجنود .. وحيث ، كما تشهد هذه اليوميات أيضاً ، كانت الشجاعة والبسالة تقتربان بوضوح الرؤية السياسية لدى المقاتل...

كان هناك جنود .. وجنود . وكان هناك ضباط .. وضباط...
كان هناك خوف ، وكانت هناك شجاعة .. كانت هناك رهبة من الموت ، وكان هناك اجترأ عليه ..

ورويداً ، رويداً .. ومع المواجهة المباشرة مع العدو... سواء بالسلاح الخفيف أو الأبيض ، أو بالمدفعية ثم بالطيران ، ومع تذوق جنودنا لطعم الانتصار .. مع رؤية مواقعه تشتعل ، ودباباته تحطم ، وطائراته تسقط .. تبددت أسطورة العدو الذي لا يقهر... وبنيت جبهة جديدة كانت قادرة على أن تنجز أكثر كثيراً مما أراد لها القرار السياسي الذي كان يقودها ..

إن يوميات دكتور أحمد حجي هي تسجيل حي ، من معاشة الأحداث في الجبهة ، وهي توثيق تاريخي هام .. يظل حياً أبداً في ذاكرة شعبنا العظيم .

طه عبد الحكيم



مفد أن وصلت إلى جبهة القتال في الخط
الامامي، تلخ علي ذاكرتي أن أسجل ما
يحدث وما يجري في مواجهتها للعدو
الصهيوني، وأقول حقيقة بأن الذي أكتبه
وما يجري به قلبي ليس إلا النزر اليسير.
وإذا لم توافيني منيتي أو يدركني الموت
فسوف أقصّ على شعبنا مأساة مقاومته
للمعدو ، وبطولات جنوده وبسالتهم.. أما
إذا كانت نهايتي ستكون على أرض القنّاة
فساموت مستريحاً لأن افكاري وجدت
طريقها ولم تعجز عن الحركة.. وبذلك
تكون هذه المذكرات هي حديث الرصاص
الذي يجب أن تتكلّم به قضية شعبنا .

دكتور أحمد حجي

القنطرة غرب

5 أبريل 1979

الاربعاء ٢ أبريل ١٩٦٩

عندما امتدت أشعة الصباح من خلال النافذة صحت أنا وزميلي الراقد بجواري في الحجرة واتجهنا إلى مكتب السرية . ، كان جميع الجنود يرتدون ملابسهم الشتوية ويقفون في صف واحد وأمامهم مهماتهم .. علمت ان ذلك هو يوم الرحيل ، في هذا اليوم سنفترق جميعا وعلى الانسان أن يمتلك مشاعره ، لقد عشنا سوياً شهورا عديدة في هذا المعسكر وأصبحنا أخوة ... سهرنا معا ، تحدثنا عن مصر وعن العدوان وعن بلادنا كلها ، ظلت واقفا في شروء منتظراً أن أسمع إسمي وأن أعرف مكاني الجديد، كنت قد اخترت التوجه إلى المنطقة الشرقية، ولما أفصحت يومها عن رغبتى نظر إليّ الجندي الذي يسجل الرغبات في إشفاق وقال لي :

- إنت غاوي قرف ..

نظرت إليه نظرة حادة فخط قلمه بسرعة أمام اسمي (المنطقة الشرقية) ، لذلك لم تكن مفاجأة لي أن أعرف هذا المكان لكنني كنت أعيش لحظات الفراق القاسية وأنا أحتضن زملائي الذين سيذهبون إلى السويس وبور سعيد والاسكندرية في لحظات مرّة ، وانهمرت الدموع وارتعشت الأكف بالسلام واهتزت الكلمات وتنجرت ، كان عليّ أن أعيش هذه اللحظات وكنت أعزّي نفسي بأن أحصل على عناوين زملائي ، كلّ في موقعه الجديد .

لحظة صمت وتوقع وصل على إثرها مندوب الاسماعيليه ...
قرأ إسمي بين الذاهبين إلى منطقة الاسماعيليه (إلى الجبهة) ، كنت
سعيدا سعادة لم أشعر بها من قبل بالرغم من الرعشة التي انتابت
جسدي وفي الوقت نفسه دار في ذاكرتي شريط طويل مرّ في
ثوان ... أمي وهي تعيش هموم أسرتنا .. إخوتي الصغار .. والذي
والصعاب التي يعاني منها .. صورة أخيرة جاءت إلى ذاكرتي ،
صورة لقائي مع أخي الأكبر ليلة سهرنا حتى الصباح نتحدث حول
مشاكل الأسرة والقرية وفلاحها وعن الوطن وجرحه الدامي في
سيناء ، حقيقة كنت سعيدا أن يتحوّل كفاحي في قريتنا إلى نضال
على الجبهة ، كان لا بدّ أن أقول لأخي أن يحتل موقعه من جديد في
كفاح الأسرة والقرية .

تركت له ورقة حملتها مشاعري ورغبتني بل وراحتي في الذهاب
إلى الجبهة .. قلت له كم سيشرفني أن أكون جنديا يشارك في
معركة الوطن ، وكم سأكون قريبا إلى نفسي وأنا أقرب سيناء
منتظرا مع المنتظرين يوم تحريرها .

الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر .. الحر شديد ..
سكان القاهرة كالنمل يروحون هنا وهناك في حركة دائبة خيل إليّ
أنهم يعيشون بعيدا عن الحرب .

... تحرك بنا القطار الحربي ... التقت عيوننا وفي أعماقنا أشياء
غريبة ، فلم يكن يشغل بالنا إلاّ طلقات المدافع وازيز الطائرات
والقتال الدائر في جبهة القناة .. خليط من الضجيج والزئير يختلط
بصور الأهل والأصدقاء .

كانت هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى الاسماعيليه ،

وكانت زيارة غير عادية، مناظر تؤلم النفس وتوقدها بالثورة، على الرصيف الشمالي جلس بعض النسوة وأمامهن بعض المتاع .. يبدو أنهن سيهاجرن إلى المناطق البعيدة .. المدينة مزدحمة بالجنود .. طلقات العدو هدمت الجامع وخرقت حائطا في مبنى كبير، نوافذ البيوت مغلقة ولا يبدو ظاهرا للعين إلا رجال الجيش . قال لنا مرافقنا :

— المدينة مغلقة لأن العدو يركز مدفعيته عليها باستمرار وأنتم رجالنا الجدد فزيديا من المهمة ..

كان قرص الشمس الأحمر الدامي ينحدر في طريقه إلى الغروب وكان على كل جندي منا أن يحمل أمتعته ويلقي بها في أي عربية من عربات الجيش المتجهة إلى مدينة «القنطرة غرب» ... ركبنا في إحداها ونزلنا منها إلى ثانية فثالثة مرقت بنا في سرعة جنونية ... قال البعض :

— ربما كانت القناة موازية لهذا الطريق .

قال مرافقنا :

— لا تبعد المسافة عنها أكثر من أربعة كيلومترات ويمكنكم في الصباح رؤية مواقع العدو .

توقف الحديث فجأة ... قال زميل من زملائنا الجدد :

— إسمعوا .. صوت مدافع تدوي على البعد . صمت الجميع في خوف .. اهترت مشاعرنا .. ارتعش البعض .. أعلن واحد من أهل المنطقة أن القصف الذي نسمعه ما هو إلا أصوات مدافعنا التي يتدرب جنودنا على إطلاقها في الليل .

تركنا العربية ووقفنا في انتظار وصول عربية أخرى متجهة إلى
حيث نحن ذاهبين .. كان سواد الليل يغطي المنطقة كلها بلا شعاع
واحد .. سمعنا صوت محرك من بعيد فأدركنا أنها عربية من عربات
الجيش ، وقفنا في انتظارها .. كانت إحدى حاملات الجنود ،
فألقينا بأمعتنا داخل صندوقها ثم ألقينا بأنفسنا من ورائها ، وفي
منتصف الليل تماما وصلت بنا إلى مواقعنا .

افترشنا الأرض .. التف كل منا في غطاءه وراح يغط في
النعاس ، وفي صباح اليوم التالي مرّت مشاعرنا بامتحان قاس
فالسبعة عشر جنديا الذين قضيت معهم الليل في هذا الموقع سوف
يتفرقون مرة أخرى قبل شروق الشمس ، سالت الدموع من جديد
واحتضن بعضنا البعض .. كنا نشدّ على أيدينا بقوة وكانت كلماتنا
تنطلق قائلة في إعزاز :

- يجب أن نكون رجالا ..



السبت ٥ أبريل ١٩٦٩

يبدو أنني قد تمرست على هذا الجو فقد صحوت وأنا أحس
براحة تامة وفي نفس الوقت كانت لي رغبة في التجول بالمنطقة ...
لكن المتدوب الذي وصل صباح اليوم أمرنا بحزم مهماتنا للذهاب
إلى المكان الذي سيكون لي شرف العمل فيه . ألقيت مهماتي داخل
صندوق عربة الزل الروسية الصنع ، وقفزت لأرقد بجوارها ، انطلقت
العربة ، أخذت أطل برأسي إلى الخلف لحقول البرسيم والقمح والوفل
الأخضر... أراض واسعة مزروعة بشتلات البطيخ والشمام...
رجال قليلون يعملون بالحقول... قوات الجيش ترابط في كل
مكان... انحنى العربة مع انحناء الطريق لتدخل إحدى القرى...
وقد لا أكون دقيقا في هذا التعبير ، فليس هناك سوى بيوت
مهجورة وشوارع خالية وخرائب هدمتها طلقات المدفعية ودمرتها
صواريخ الطائرات... القرية كلها أنقاض تمرح فيها الكلاب التي
رفضت الرحيل مثلما رحل الناس وهم يحملون أمتعتهم ويسحبون
دوابهم ، حتى النوافذ والأبواب نقلوها إلى حيثما ذهبوا... مفارقة
عجيبة... حائط مازال قائما في القرية وقد خطت عليه يد صغيرة ،
يبدو أنها لطفل في المدرسة الابتدائية ... « النصر لنا » ...

مرقت العربة بسرعة لتدخل قرية أخرى إصابات العدو بها
خفيفة... في القرية يلتقي رجال الجيش بالفلاحين. كانت تلك

الصورة تريحني كثيرا وكنت أتمنى أن يكون التحام الجيش بالفلاحين
هكذا على طول الجبهة ...

عربات الجيش لا تهدأ ، والوجوه السمراء لجنودنا - رغم كل
شيء - تطفح بالأمل ... فلاح يحاول أن يرفع ما دمره العدو من
بيته ... فلاح آخر يشق التربة بفأسه رغم أن العربات العسكرية
التي لا تكف عن الحركة سوف تهدمها وتغطيها بالتراب مرة ثانية ،
لكنه رغم ذلك لم يرد أن يترك القرية ، زرع بجانب القوات المراقبة
لحماية المنطقة ... لقد كانت هذه الصور هي الدوافع القوية لي أن
أعود نفسي وأعدّها لتحمل رؤية الجراح الدامية والمآسي المفجعة
دون أن أسقط أو يصيبني اليأس .



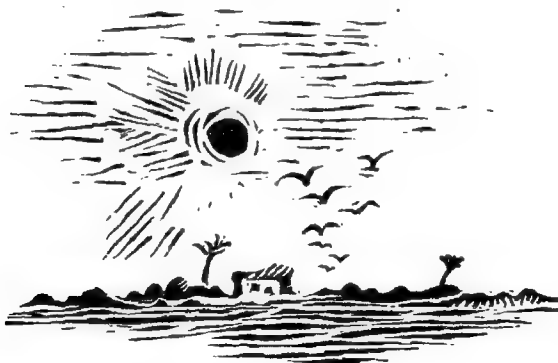
الاثنين ٧ أبريل ١٩٦٩

أطراف بحيرة «المتزلة» تمتد إلى الجبهة كأصابع اليد هنا وهناك ، إنها صامته تماماً . أكوام الملح الأبيض الناصع تمتد بطولها . الأوز الذي يرفرف في الأفق ويلامس مياهها الساكنة أحياناً ، أما الحشائش فإنها تنمو في كل مكان... يبدو أن الفلاحين تركوا أراضيهم المحيطة بالبحيرة منذ شهور بلا زرع أو حتى حصاد للمحصول القديم ، كما هو الحال في الكثير من المواقع على طول الجبهة... قوات الجيش ترابط في أماكن متفرقة في الخنادق والملاجئ في مواجهة العدو .. وسط هذا البوار وتلك الحشائش توجد قطعة أرض لا تزيد عن مترين ونصف المتر زرعها الأخضر يشب عالياً في مواجهة الرصاص .. جاموسه وحمار يرقدان في اطمئنان عند رأس قطعة الأرض هذه ، وعم «بيومي» الفلاح العجوز يحمل عصاه ويتجول متفقداً زراعته ، وقد يتعد قليلاً حتى لا يسقط في إحدى الحفر التي أحدثتها قذائف العدو ، أو يتقدم في اهتمام ليدقق النظر في شيء ما . عندما رحلت القرية الصغيرة في منتصف الليل بعد أن التهب الاشتباكات بالمدفعية بيننا وبين العدو وتمكنت قذائفه من الوصول إلى القرية ، رفض عم «بيومي» الرحيل معهم وقرر البقاء والاستمرار في زراعة أرضه .

وعندما تبدأ الاشتباكات من جديد وتنطلق القذائف ومحيط غبار الانفجارات بداره ، فإن ذلك لا يخيفه أبداً ، وقد تمكن هو وزوجته وأولاده من أن يحفروا تحت الأرض بجوار البيت ملجأً يلجأون إليه في حالات الخطر ، وفي أحيان أخرى يشمر عم «بيومي» وأولاده ملابسهم ويحملون القذائف وصناديق الذخيرة ليساعدوا الجنود أثناء القتال ، وعندما تنتهي الاشتباكات يحمل عم «بيومي» عصاه في يد وفي اليد الأخرى يحمل مقطفاً به بعض الزجاجات المملوءة باللبن ويذهب إلى الجنود خلف المدافع ويقدمها لهم .

وتعود الحياة بسيطة هادئة في بيت عم «بيومي» .

وعند المساء ... يتجه قرص الشمس وقد ازداد احمراراً لينغرس من جديد في مياه بحيرة «المتزلة» ، فيحوّلها إلى لون الدم . وقد تعود الاشتباكات من جديد ، ويعود عم «بيومي» إلى بيته ، ولكنه لا يتوقف عن الالتحاق في طلب سلاح شخصي له .



السبت ١٢ أبريل ١٩٦٩

ارتديب معطفي الصوفي وأحكمت إغلاق جميع أزراره
لأحمي نفسي من البرودة القادمة من قناة السويس والبحيرات المرة
وأطراف بحيرة المنزلة. قادتني قدماي في شغف نحو القناة .. فقد كنت
أقرأ لكاتبة سوفيتية كتابا عن تاريخ القناة والآلاف الذين ماتوا من
الفلاحين في شقها ، والتاريخ الطويل لمقاومة الاحتلال الذي كان
يطمع في الاستيلاء عليها . وكل القرى على طول القناة تحمل
بصمات تاريخ القناة .. وتاريخ العمل الفدائي ومقاومة الاحتلال
الإنجليزي . أسراب العصافير وأبو قردان ترفرف بين الحشائش ..
وفجأة دوت المدافع ، فتطايرت أفكارى وتحطمت خيالاتي ،
اضطربت العصافير وتفرقت أسراب أبو قردان ، وعوت الكلاب
وأخذ الفلاحون يفرون إلى بيوتهم في دعر .. الدخان يتصاعد على
الضفة الشرقية للقناة .. جريت لأقرب خندق وألقيت بنفسي
داخله ، فككت الزرار العلوي وقلت لنفسى ما أصدق قول الكاتبة
الروسية في كتابها « إن القناة هي قلب مصر وهي مأساتها ... »
نظرت ثانية للدخان .. طلقات جديدة تنفجر ... صبي من أولاد
الفلاحين يهبط إلى جوارى ويقول لي في فرح :

— النار والعة عند العدو .

قلت : أنت متأكد ؟

قال : نعم نعم .. مدافعنا تضرب .

قلت للصبي :

— هل تخاف النيران ؟

قال بشجاعة :

— أية نيران ؟ .. الاسرائيليون ناس جبناء .

مرت فترة من الصمت قطعها الطلقات المتواصلة التي تنفجر في مواقع العدو .. الراديو يعلن عن اشتباك في منطقة القنطرة .. الجالسون بالخندق يتكلمون حول الجهاز الصغير وهم يرهفون السمع .. قال المذيع :

— وكانت خسائر العدو فادحة أما قواتنا فلم تخسر شيئا . انطلق الصغير والتصفيق وقفز كل من في الخندق إلى الطريق ، وعادت الماشية إلى مراعيها وعادت العصفير وأبو قردان تفرح في أرض الوطن ، وعلى الجانب الآخر الذي يحتله العدو كان الدخان مازال يتصاعد .

اتجهت ماشيا على قدميَّ إلى بحيرة المتزلة المترامية الأطراف حيث كانت الشمس في طريقها إلى الغروب ... قرص الشمس الأحمر يعكس على المياه صورة رائعة ومؤلة أيضا ، من بعيد يلتحم الأفق مع مياه البحيرة ويظهر على البعد قارب صغير لعله قارب صيد ، تهب رياح قوية ، أقول لنفسي :

« في وقت الحرب وبرغم الرصاص الممهر ، الفلاح يزرع الأرض والصيد يبحث عن الرزق في البحيرة .. فكيف لا يقاتل الجندي ببسالة وثبات؟؟ » .

..عدت وفي ذهني أشياء عديدة عن كفاح الإنسان في
بلادنا .. وعن المحنة وقسوتها .. والأرض التي يحتلها العدو.



الأحد ١٣ أبريل ١٩٦٩

على غير عادتي صحت هذا الصباح مبكرا للغاية .. الساعة الرابعة .. وظللت راقدا في فراشي لأحتمي من البرد، لكنني بعد قليل سمعت أصواتا وحركة ..

سألت جنديا من زملائي : هل نتوقع اشتباكا في وقت مبكر كهذا؟

قال : أبدا .. لكنها دفعة جديدة من زملائنا ذاهبون لقضاء إجازتهم الميدانية .

قلت : إجازات العدو يترصد لنا؟

قال : وما وجه الغرابة ؟ .. ناس تحارب وناس تستريح وهكذا ...

وبعد قليل تجمع عدد من الجنود .. كل يرتدي ملابسه النظيفة وقد وضع أعلى ذراعه اليمنى العلامة الحمراء التي تدل أنه من رجال ميدان القتال، الجنود يحملون زملاءهم أصحاب الإجازات خطاباتهم وتوصياتهم للأهل والأصدقاء ويكررون ذلك مرات ومرات .

وصلت العربة الكبيرة وتكدسوا فوقها، كانوا سعداء فسوف يلتقون بالأهل والأصدقاء ويقضون أياما في المناطق الآمنة ..

مذكرات جندي مصري • ٢١

تحركت العربة وتحركت الأيدي تودع الزملاء وتسمرت العيون على العربة وهي تتلوى مع انحناءات الطريق الزراعي حتى اختفت تماماً . وعاد الجنود وفي عيونهم دموع متحجرة ينتظرون دورهم في إجازة يقضونها بعيداً عن القنابل والقذائف والحياة العسكرية القاسية، حيث يقتربون لبضعة أيام من الحياة العسكرية القاسية، حيث يقتربون لبضعة أيام من الحياة الهادئة في القرى البعيدة حيث يروون للأهل والأصدقاء قصص البطولة والألم عن قلب مصر الذي يخفق على طول جبهة قناة السويس.



الثلاثاء ١٥ أبريل ١٩٦٩

كان عليّ أن أسير على قدمي عشرة كيلومترات حتى أصل الى القرية التي تحتلها كتيبتنا ، فقد كان القناصة الاسرائيليون يقطعون الطريق علينا بالرشاشات والأسلحة الخفيفة ، لذلك لم أضق ذرعا وأنا أجتاز الطريق من أوله وسط البيوت المهدامة في مدينة القنطرة مارا بالأراضي الزراعية المحترقة كانت الأفكار تتسابق إلى ذهني وتمر بسرعة كالطلقات المتقطعة. وبين الحين والحين كان يمرق بجانبني أحد الكلاب مذعوراً ... تذكرت ما حكاها لي أحد الجنود عن زميلنا السائق الذي كان يقود عربته في سرعة جنونية ليملاً خزانات المياه ، فأطلق عليه القناصة الاسرائيليون رصاصاتهم ، فقاد العربة في سرعة أكثر... طلقات الرشاش تصيب العربة وخزان المياه أخذ يتصعب على الطريق... السائق ينحني بالعربة داخل الأراضي الزراعية... العربة تهبط وتعلو مع منخفضات الطريق. وعند مبنى القيادة توقفت العربة مرة واحدة بصوت مزعج ، خرج على إثره جمع من الجنود يستطلعون الخبر فأروا السائق وقد ضرب باب العربة بقدمه وسقط مغشياً عليه ، أسرع أحدهم إليه وصب على وجهه الماء البارد فاستيقظ ونهض واقفا وأخذ يقص علينا كيف حاصره القناصة الاسرائيليون على الطريق... وكيف تمكن من الفرار منهم رغم الطلقات التي كانت تحترق باب العربة. ورغم تحطم

زجاجها . كان السائق يحس ببعض الألم في قدمه ، التف الجنود من حوله وكاوا يظنون أن هناك رصاصة قد أصابته .. تحسّسوا ساقه فلم يجدوا شيئاً ، ولكن أحدهم صاح فجأة وهو يشير إلى قدم السائق :

– عجيبة .. انظروا... !!

تحوّلت أنظار الجميع تبّحلق في قدم ذلك الجندي لتلمح إحدى رصاصات العدو وقد تسمرت في نعل الحذاء العسكري الثقيل دون أن يصاب قدمه بأي أذى .

كنت قد قطعت نصف الطريق وأنا أعيد على نفسي قصة هذا الجندي وأتلدذ ببطولته لكنني سمعت تكتكة موتور إحدى العربات فالتفت مسرعاً .. كانت عربة جيب عسكرية ... قلت في نفسي عربات الجيب العسكرية لا يركبها إلا الضباط وهم يتأفّفون من اصطحاب الجنود معهم ، لكن قدمي كانتا مرهقتين . ولم تعد لديّ قصة أخرى أكمل بها الطريق قلت فلأجرب ، وقفت معترضا العربة حتّى اقتربت مني .. توقفت .. أشار إلى الضابط بالركوب ، قفزت من الباب الخلفي ثم جلست على المقعد الذي كان التراب يخبّي لونه تماما ، كان الضابط الذي يقود العربة برتبة رائد . فهمت أنه قائد إحدى كتائب المدفعية . وفي الكرسي الخلفي كان يجلس ضابطان برتبة نقيب ، مرقت العربة تحترق أراضي القمح وتدوسه .. أشار القائد بأن ذلك المكان يصلح لكي تحتله الكتيبة الجديدة موقعا لها . أوّما أحدهما برأسه موافقا ثم ضحك ضحكات متوالية .. وقال للنقيب :

– هل نسيت إحضار الثلاثجة مع المهمات الأخرى ..

رد النقيب :

- نسيها فعلا .

قال الرائد في غضب :

- أنا لا أستطيع أن أعمل « والبيرة » بعيدة عني .

ثم التفت إلى النقيب من جديد قائلا :

- نسينا أنفسنا تماما .. تصوّر لم نحضر معنا بعض

الساندوتشات .

قال النقيب مسرعاً :

- يا فندم غدا نجهز ساندوتشات .

قال الرائد : ضروري .

وكادت عجلة القيادة تفلت من بين يديه .. فقد سقطت
العربة في حفرة مسطحة لكنها قفزت بعد أن ارتطمت رؤوسنا
بالسقف ، كنا قد اقتربنا من موقعنا ، طلبت النزول من العربة ،
نزلت إلى الطريق ، نظرت خلفي للعربة لأرى ما قد حدث لكنني
كنت سأسقط في إحدى الحفر العميقة التي حفرتها إحدى صواريخ
العدو .



الأربعاء ١٦ أبريل ١٩٦٩

منذ الصباح الباكر .. وهذا الجندي لا يتعد غني فالأم
يعتصره ويعتصرني أيضا من أجله، فقد إحتبس عنده البول منذ
يومين .. ماذا سنفعل له ؟ الاسعافات التي تحت يدي لا يمكن أن
تؤدي له شيئا، طلبت إحدى العربات ، وفي الصندوق ألقيت
بجسدي إلى جواره وأسندت رأسي على ظهر مقصورة السائق ..
انطلقت العربة تحترق الأراضي المزروعة والتي تهدم ما يقابلها من
بيوت طينية مهجورة، كان لابد من الاسراع لإسعاف هذا
الجندي، وكان السائق يعرف هذا جيدا .. العربة تتلوى بين
حقول القمح والجندي هو الآخر يتلوى من الألم المبرح الذي يزداد
شدة لكما أوغلنا في الطريق، كنت أشيح البصر بعيداً عنه فيقع على
الحقول الصفراء والأراضي البور فأحس بانقباضة شديدة، لقد
كانت الكارثة قاسية على هذا الشعب فهي تلتهم قوته بنفس القسوة
التي تلتهم بها أبناءه.

أفقت على صوت جندي الاستقبال بالسرية الطبية وهو يوقظ
الجندي المريض للتزول من العربة. قرر الطبيب احتجاز المريض لسوء
حالته.

عادت بنا العربة بسرعة، وفي الطريق استوقفنا أحد جنود
الشرطة العسكرية قائلاً:

- يحتمل أن يحدث اشتباك بيننا وبين قوات العدو بعد لحظات ، أرجو أن تلتزموا الخنادق فور سماعكم الطلقات .
قلنا في صوت واحد :

- فلنسرع بالعربة إلى مواقعنا .

وعلى الطريق الموازي لقناة السويس انطلقت العربة في سرعة جنونية ، وفي كل دقيقة كنا نتوقع إحدى ضربات العدو على عربتنا .
كان قلق الصمت يحيم علينا أنا والسائق ، لكننا أفقنا بعد وصولنا إلى موقع كتيبتنا سالمين .. وانطلقنا نضحك ورحت أعلن لبقية الجنود عن زميلهم الذي احتجز بالسرية الطيبة .
اقرب منا أحد الضباط قائلاً :
- كونوا على استعداد ..

وما إن انتهى من كلماته حتى انطلقت الصواريخ من سيناء إلى مواقعنا ... احتضنت حقيبة الاسعاف التي أحملها على كتفي ...
وداخل الملجأ (قيادة الكتيبة) جلست في انتظار أية أوامر لإسعاف الأفراد المصابين .

كان العدو يركز ضرباته الصاروخية على مواقعنا ... قصفت صواريخه معظم الأشجار التي كنا نختفي بها ، صاروخ انجبه إلى جذع شجرة الملاحظة فحملها من مكانها لتسقط بالجندي الذي يعتليها في مكان آخر بعيدا ، أسلاك التليفون تقطعت ... جاء جندي الملاحظة مذعورا إلى الملجأ وارتمى بجواري قائلاً :

- انقطعت الصلة بين مدافعنا وقيادتها على شاطئ القناة ومازالت الصواريخ تتساقط وتدمر . عيوننا تزداد احمرارا ...

نظرات ذاهلة .. البعض يتلو آيات من القرآن والبعض الآخر يتلو فقرات من الإنجيل، كلما اهتز الملجأ من قوة الانفجارات الصاروخية .. أحد الجنود يعدّ الانفجارات بصوت مسموع : (٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ .. خمسة وأربعون صاروخاً قذفت بهم منطلقنا قبل أن يتوقّف القصف .. صعب علينا أن نصدق بأننا مانزال أحياء وأن كل الضربات ابتعدت عن الملجأ .. انطلق بريق الفرح من عيون الجميع .. عانق بعضنا بعضاً عناقاً حاراً وكأننا ولدنا من جديد، بينما كان قرص الشمس قد ازداد احمراراً، واتجه مسرعاً ناحية بحيرة المنزل لتبتلعها مياهها رويداً رويداً، وبدأت الحركة تدب من جديد، انطلقت الطيور عائدة في تشكيلات رائعة .. الأشجار المحطمة تتكوّم هنا وهناك .. أحد الكلاب أصيب بشظية .. جاموسة ضخمة ملقاة وهي مشخنة بجراح مميتة .. صاحبها يشقّ جلبابه ويقرر الرحيل نهائياً عن المنطقة.

ركبت العربة مع السائق لننطلق بين الحقول المزروعة إلى القرية التي تعسكر فيها الشؤون الادارية للكتيبة ، كنت قد تعودت على ارتطام العربة بمنخفضات الطريق، القرية تلوح لنا بين الظلمة التي بدأت ترحف على الجبهة كلها، كنت أتعجل وصولنا إلى القرية حتّى أستريح من عناء هذا اليوم ومتاعبه .

ألقيت بسلاحي وحقية الإسعاف بجواري، ودون أن أخلع حذائي العسكري الثقيل شددت البطانية فوق جسدي، ورحت أحاول النوم. لكن شريطاً لأحداث هذا اليوم لا يفارق ذاكرتي ، سمعت بعد قليل وقع أقدام عسكرية تدب على مقربة مني ، فتحت عيني لكن الظلمة الشديدة لم تمكنني من رؤية القادم :

- يا دكتور... يا دكتور.

صحت قائلًا :

- من؟

- قم حالا إلى المطبخ فقط سقط أحد الجنود في وعاء الطعام الساخن.

- هل احترق؟

- فخذاه فقط.

فبت مسرعا .. ارتديت معطني وحملت الحقيبة على كتفي وأمسكت سلاحي باليد الأخرى وقلت للجندي :
- نبّه على سائق العربة أن يكون مستعدا.



الخميس أول مايو ١٩٦٩

كان الجو محرقا ، أرواحنا تكاد تزهق من شدة الحرارة ، وكنا نتوقع أن العدو في سيناء يكاد يحترق هو أيضا من شدة انعكاس حرارة الشمس على رمال سيناء ، ورغم ذلك كانت عيون الجنود يقظة ومفتوحة من وراء المدافع ، والفلاحون الباقون بالقرية يحصدون القمح ويغنون أغنيات الحصاد . وفجأة توقف الغناء وتأهب الجنود خلف المدافع ، وأنصت الجميع ، وكانت المفاجأة المرعبة : سبل من الصواريخ ينهال على الموقع .. كانت هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها العدو موقع كتيبتنا ويطلق صواريخه على هذه القرية . كان الوقت أصيلا ، وكان الفلاحون في حقولهم يهون أعمال ذلك اليوم الشاق .. سقطت قذيفة استطاعت أن تحدث بعض الحسائر .. حريق يشتعل في حقل القمح ... حمار يسقط قتिला وقد بعجت إحدى الشظايا بطنه ، كلب يجري ويعوي .. تلحق به قذيفة أخرى فيسقط قتिला هو الآخر ، حول الرجال نظرهم عن السماء وهم يهرولون مسرعين يسوقون أمامهم ماشيتهم ، النسوة يصرخن في رعب باحثات عن أطفالهن .. الكلاب تجري مذعورة .. العصافير وطيور السماء والأوز البري تفرق بسرعة بعيدا إلى البحيرة .. طلقات الصواريخ تقترب من مباني القرية . حملت سلاحى على كتفى اليمنى ، وعلى الكتف الأخرى حقيبة

الإسعاف ، ولبست خوذي الحديدية وارتيمت بسرعة داخل
الخنديق ، وصوت الطلقات مازال يثر في الفضاء ، والشظايا تتطاير
وتسقط بجواري .. العدو يلاحقنا بطلقات انتقامية ، دار في خيالي
شريط طويل مرّ في ثوان .. صورة لفلاحي قريننا ، صورة للأهل
والأصدقاء .. صورة مرعبة قاسية للموت ، قذيفة تسقط بجوار
الخنديق .. التصقت بالجدار الرملي ، اهترت أركان الخنديق ، رائحة
البارود تملأ المكان حتّى أكاد أختنق ، لا أرى أحداً ، ماذا قد يكون
حدث الآن ، تحسست جسدي ، كنت حيّاً لم أصب بأية إصابة ،
لكني كنت أتصوّر أن هناك جرحي وقتلى كثيرين ، بدأت حدة
ضربات العدو تقلّ إلى ضربات متقطعة .. رفعت رأسي لأنظر
حولي ، الحمير تجري في كل اتجاه والكلاب تعوي في ذعر ، والحريق
مازال مستعرا في حقل القمح ، الصراخ والعويل يتزايد .. يبدو أن
شيئا ما قد حدث ، حملت نفسي خارج الخنديق وليحدث ما
يحدث ، قد يكون هناك جريح في حاجة إلى إنقاذ ، كان العدو قد
شعر بأنه دمر مواقعنا فتوقفت صواريخه عن العبور إلينا .. كنت
أجرى كالملهوف باحثاً عن الزملاء في الوقت الذي خرج كل جندي
باحثاً أيضاً مثلي عن زملائه ، كنا نحتضن بعضنا بعضاً في شوق لا
مثيل له ويقبل بعضنا بعضاً ، فيتعلق بشفاهنا التراب الذي غطى
الوجوه من آثار الطلقات الصاروخية والقذائف التي توالى على
مواقعنا ، بحثت عن جرحى فلم أجد ، عاد الفلاحون ونساؤهم
بنظرات شاردة ، وفي عيونهم دموع .. سألت :

— هل هناك جرحى ؟

قالوا : لم يحدث شيء .. لقد كان الله كريماً معنا ..

وبعد قليل كان الفلاحون قد تجمعوا في أحد أجران القرية ..
والتفوا حول أكبرهم سناً وأكثرهم حكمة وأخذوا يتساءلون :

— ما العمل؟؟

لقد قرروا الرحيل عن القرية وبلاد الله واسعة والرزق في أي
مكان .. قال أحدهم :

— أيها الرجال إن الروح غالبية لا يساويها أي ثمن ، تغور
الأرض ، ويغور الزرع والبيت ، لكن الروح غالبية .

ووافقهم الجميع إلا رجل عجوز آبى الرحيل عن القرية ، صاح
فهم بصوت متهدج :

— يا أولاد الموت في كل مكان .. والمكتوب على الجبين لازم
تشوفه العين .. وهذه أرضنا ورزقنا ، ولكنهم كانوا قد قرروا
الرحيل .

أسرعت النسوة يحملن ما يستطعن حمله من مؤن ، والرجال
أخذوا يغلقون المنازل ويسحبون الماشية ، شاب مفتول العضلات له
سحنة مصرية صميمة يلح على والده العجوز ليقنعه بضرورة
الرحيل فلا يوافق الأب .. الرجل يصر على البقاء في القرية .

وفي ظلمة الليل كان الركب الحزين يتحرك في طريقه لاختراق
الصحراء إلى « الزقازيق » .. الدجاج والديوك تصيح ، والأطفال
يكنون ، والرجال يلقون علينا التحية قائلين :

— الهمة يا رجال ..

كانت كلماتهم هذه كالطعنات الحادة تمزق أحشاءنا ..
أصبحت القرية مقفرة تماماً بعد رحيلهم ولا يسكنها إلا العجوز

وحده مع قوات الجيش .

ظللنا طوال الليل وتلك الصور لا تبارح خيالنا .. رحيل القرية
في منتصف الليل عبر الصحراء .. العجوز الذي يصر على عدم
مبارحة الأرض والقرية .. رائحة البارود وقلب مصر الذي يتزف .



٣ مايو ١٩٦٩

- على أطراف البحيرة وفي الحشائش النامية في الأراضي البور يقف الأوز البري باحثاً عن طعامه ثم يحلق في مجموعات ويكركر في الفضاء، وقد كان الفلاحون يهوون صيد ذلك الأوز، لكن المنطقة كانت قد خلت تماماً من الفلاحين، وبعض الحقول مازال بها محصول القمح في انتظار حصاد فات أوانه بكثير... أجران بها أكوام القمح دون دراس، فقد ترك الفلاحون كل شيء خوفاً من ضربات العدو. لكن العجوز الذي رفض أن يغادر القرية كان كل صباح يخرج حاملاً فأسه إلى قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها ليبذر البطيخ وينقل شتلات البصل، ورغم أن الاشتباكات في المنطقة مازال عنيفة، لكن هذا العجوز أصر على العمل وأصر على مواجهة التيار في الحقل بعيداً عن المخاطر، كان يتلفت حوله بين الحين والآخر ليلمح أسراب الأوز البري وهي تتجه نحو بحيرة المترلة، ثم يمسح بكفه العرق الغزير المتصبب على جبينه ويواصل عمله في صمت.

تحرنا في أمر هذا الرجل .. أرسل إليه ضابط الموقع ليقول له أن الضرورة تحتم أن يغادر المكان حتى لا يصاب بأذى .. قال العجوز:

- والأرض من يزرعها؟

قال الضابط :

- الأرض يا والدي تزرعها اليوم وغدا يدمرها العدو ..
وتمكن الضابط من إقناع العجوز بالرحيل عن القرية .
في الصباح كنت أعد نفسي للسفر مع بعض الزملاء .. تجمعنا
بجرب القرية ، حضرت العربة لنقلنا إلى الاسماعيليه ، وعندما هممنا
بالركوب رأيت العجوز ينادينا لمساعدته . كان يحمل كيساً ثقيلاً
للغاية .. قال الرجل موضحاً لنا ونحن نهمّ بحمله :

- هذه مسامير المحراث وسلاحه وكذلك رأس الفأس ..
إن هذه الأشياء هي روح الفلاح يا أولادي . وأخيراً استقرّ العجوز
داخل صندوق العربة ، وتحركت بنا .. كنا ثمانية جنود والعجوز
تاسعنا وكان برد الصباح مازال يصفع وجوهنا ، كنا نتحدث عن
هموم الوطن . وكان العجوز يطل إلى الأراضي الزراعية ويمصمص
شفثيه كلما لمح البوار زاحفاً عليها ، فيصبح قائلاً في ألم شديد :
- ربّنا يتقمم منهم ..

لم يكن يلتفت إلى حديثنا .. بل كانت عيناه تبحث دائماً بين
الحقول الجرداء والسواقي المخطمة عن جواب لسؤال يلح عليه وهو
كما قاله لنا : لماذا يترك الفلاحون الأرض والبيوت ويهاجرون خوفاً
من الموت ؟

انطلقت العربة بين الأراضي البور إلى الطريق الزراعي
المرصوف لتقطع ما يقارب عن ثلاثين كيلومتراً نحو الاسماعيليه ..
اشتد النقاش .. البعض يؤكد أن العدو ذكي ومخادع والبعض
الآخر يؤكد أن العدو جبان تهزه أقل هزيمة . والعجوز يتمم بين
الحين والحين وهو يحول بصره نحو سيناء دون أن يلقي بالا لما نقول :

- ربنا ينتقم منهم ..

ثم طلب النزول من العربة .. صاح أحد الجنود مشيراً على السائق بالتوقف ، وحملنا العجوز إلى الأرض وكذلك قفته وكيسه الثقيل ووضعناهما بجواره بعد أن جلس القرفصاء وهو مازال يتمم :

- ربنا ينتقم منهم ..

وانطلقت العربة واحتد النقاش مرة ثانية ، والفلاح العجوز مع متاعه البائس مازال يترأى لنا على البعد جالسا في الصحراء الواسعة بلا هدف ولا مأوى .. بصغر حجمه كلما ابتعدنا عنه ويكبر معه الحقد في نفوسنا ويزداد كأس الهزيمة مرارة على مرارة.



الاثنين ١٢ مايو ١٩٦٩

- اجتاحت الجبهة موجة باردة سقط خلالها المطر بغزارة .
وكانت الريح تزجر حتى أننا كنا نصيح السمع لبرى هل هناك
إشتباك على الجبهة أم لا ، الرؤية غير واضحة للمرة رغم أننا في
الظهيرة ، الضباب الكثيف يغطي الأرض البور المترامية والتي تتمركز
بها مواقعنا كما يغطي مواقع العدو في سيناء أيضا ، العدو يطلق بعض
الطلقات المنفردة والخفيفة وكأنه يتمرد على الطبيعة ، حان موعد
النشرة الثانية للأخبار .. قال المذيع :

- استطاعت القناصة عندنا إصابة جندي اسرائيلي ..
قلنا :

- خبر عادي ..

قال أحد الجنود :

- سمعت هذا الخبر حقيقة .. فقد أراد بعض جنود العدو
التسلل إلى جبهتنا للقيام بعمليات تخريب ..
صمتنا .. قال الجالس بجواري :

- لا م... ..

عندما أشرف النهار على نهايته ظهر قرص الشمس أحمر بلون
الدّم يسبح مرة أخرى خلف مواقعنا في مياه بحيرة المترلة ، جلست

أفكر ، كيف يجرؤ العدو على التسلل إلى مواقعنا ، وكيف يكون أثر ذلك على جنودنا ، هل هي مجرد حرب نفسية ، أم أن هناك هدفا عسكريا وراء ذلك ، كنت مهموما للغاية ، وانتفضت فجأة ، فقد صاح الجندي الواقف لحراسة المبنى الذي نحتله صيحة عالية آمرة .

- قف من أنت؟؟

كان جنديان وكلبان .. قال أحدهما بنبرة واثقة :

- يا دفعة نحن مصريان مثلك نحن من « الصاعقة » ..

اقتربت منها وقلت :

- ماذا تريدان؟

قال الجندي :

- أين ضابط الموقع؟

وكان الضابط قد سمع الحوار فأطل من باب الحجرة صائحا :

- أية خدمة يا دفعة؟

تقدم الجنديان والكلبان ودخلنا جميعنا إلى الحجرة .. وعلى الضوء الخافت ظهرت ملامحها الريفية الصميمة .. قال الضابط :

- ماذا يجب أن نفعله لكما؟

رد الجندي بعد أن أمر الكليين بالجلوس :

- سنبر إلى سيناء بعد ساعة واحدة عند المنطقة المواجهة لكم

على خط القناة ..

كانت عيناه تلمعان وكان شعر ذقنه قد نبت بغزارة . أشعل كل منهما سيجارة وأخذ يشد أنفاساً عميقة ويقلق واضح .. نظر أحدهما إلى ساعة يده وقال ساعة تقريبا ونتحرك . ووضع يده على رأس كلبه

الراقد بجواره قائلا :

- استعد يا عنتر.

وخيل لي بأن الكلب قد هز رأسه بالموافقة ..

كنت في لهفة لمحدثهما عن منظمة «سيناء العربية» .. وعن العمل الفدائي في أرضنا المحتلة لكن الجنديين انطلقا يسردان لنا كيف يتسللان في جنح الظلام بصحبة الكلبين ليذمرا للعدو منشأته ومعداته، وكيف يعبران القناة. وكيف يتخلصان من كمائن العدو .. أخرج زميلنا الجندي الحلاق علبه سجائره ويأصرار أولاد البلد أعطى لكل منها سيجارة ، وبعدها بقليل كان الجندي الطباخ قد أحضر بعض اللقيات المتبقية من عشاء اليوم وطبقا من العسل وقدمها للجنديين وألح عليها أن يأكلا ويطعما الكلبين ، أكل الجنديان وتأفف الكلبان من الطعام وبعد لحظات كان الكلبان يتحركان في قلق جيئة وذهابا ..

انتهى الجنديان من العشاء وقال أحدهما :

- الكلاب تعرف ميقات العملية !!

قال زميله بعد أن نظر في ساعة يده ..

- اقرب الموعد يا سيادة الضابط ... اتصل برجالك على خط

القناة ليسهلوا مهمتنا .. قفز الضابط الشاب وامتدت يده بسرعة

إلى ساعة التليفون الميداني وبعد كلمات قليلة قال :

- نحن نريد أن نقدم لكما أكثر من ذلك .

نهض الرجلان .. اقرب كل كلب من صاحبه .. حمل كل

جندي منها مدفعه الرشاش على كتف وحمل حقيبة أخرى مليئة

بالمفجرات على الكتف الآخر ، ثم ألقى بعقب السيجارة وامتدت

يده تضغط على أيدينا بالتحية ولم تتألك أنفسنا فاحتضناهما
وقبلناهما كثيرا وقلنا في صوت واحد :
— ربنا معكما .. وقلوبنا أيضاً ..

وانطلق الرجالان ومعهما الكلبان يلفهما ظلام الليل ليعبرا القناة ،
وبعد ساعات قليلة وربما لحظات ستندلع النيران في موقع ما من
مواقع العدو، وربما يستشهدان مع كليهما .

ودخلت إلى حيث أنام وخواطر عديدة تجري في مخيلتي، كلها
تهاوت أمام هذين الرجلين وكليهما ، فكيف سيعرف الناس قصص
هؤلاء ؟ .. كيف سيعرفون أن هناك رجالا يدفعهم وطهم الجريح
لأن يقتحموا الموت والخطر في بساطة وبسالة مثل هذين
الرفيين .. كيف؟؟



١٥ مايو ١٩٦٩

ارتديت معطفي العسكري ولبست الخوذة الحديدية فوق رأسي ،
وعندما هممت بالخروج إلى البحيرة اقتربت عربة عسكرية من المبنى
الذي نحتله ... وقفت في مكاني .. نزل الحير الروسي من العربة
واقرب منا ليحيينا ، ذهبت لأتجول معه ، لم أفهم كلماته الروسية ،
ولكني كنت أفهم من حركات يديه وقسمات وجهه ما يريد . قلت له
بالإنجليزية :

- هل ترى أن النصر سيكون حليفنا في المعركة الحالية ..

أجاب :

- بعض النظام وبعض المسؤولية تكون معركة تحطيم الامبريالية
على أيديكم .

قررت الذهاب إلى بحيرة المتزلة .. أجلت نظري في الفضاء
اللامتناهي والذي يلتحم بمياه البحيرة في صفاء عجيب ، لا يشعر به
إلا طيور البحيرة وهي تعلو وتهبط على سطح الماء ، جلست والألم
يعتصرني كلما فكرت في مأساة بلادي ، فقد كان فكري يتمزق وأنا
أفكر في الشعب الذي يدفع بلا حساب من أجل معركة ضخمة ،
لقد أحسست أنني أضع حياتي في مخاطرة أحسها بلحمي ودمي ،
وأحس أن شعبنا يعيش هو الآخر نفس المخاطرة . أنها لعبة الخداع
المستمرة للشعب حول تفاهة قوى العدو ..

ولم يستغرقني التفكير كثيرا .. فقد إنهمرت صواريخ العدو على الموقع أكثر تركيزاً من ذي قبل . كان العدو يهدف إلى ضرب سرية المدفعية الملاصقة للمبنى الذي نحتله .. جريت بعيداً لأتفادى الشظايا المتطايرة من حولي ، ووجدت بقية جنودنا يجرون هم أيضاً بعيداً عن مواقع النيران ، كنا نلتفت إلى بعضنا بعضاً في أسى ، فقد تركنا مواقعنا القتالية وجرينا نبحث عن الحياة ..

كان هناك جندي واحد أصر على البقاء بجانب المدفع .. وبعد قليل إنجه الضابط إلى الموقع وأمر الجنود بالعودة إلى مدافعهم والاستعداد للضرب .

وانطلقت صيحات مدوية من الجنود ..

- .. يا رب الرحمة يا رب ..

نيران العدو لا تهدأ ولا تتوقف ، إنطلقت نيران مدافعنا تقصف أماكن تركزه في سيناء ولكنه شدد من هجماته الصاروخية أكثر فأكثر ، جنود مدفيعتنا لم يعد في مقدورهم الاستمرار ، قال لهم الضابط :

- انتشروا بعيداً عن المدافع ..

لكن الجندي الباسل رفض أن يترك المدفع .. كان المدفع محشوا بالطلقات ، فضغط الجندي على عمود الضرب وانطلقت القذائف تصفر نحو العدو .. ركز العدو نيرانه على المدفع وسقطت قذيفة بجواره ... انتشرت الشظايا من حوله وانطلقت صرخة مدوية ثم انقطعت ..

قفز الجنود مسرعين ليجدوا ذلك الجندي والدماء تندفق من

رأسه وقد احتضن مدفعه . جريت بعد أن توقف الاشتباك لأرى إصابات هذا الجندي لكنه كان قد فارق الحياة تماما فقد شجت شظية رأسه ..

وقف زملاؤه يبكون من حوله بكاء مرًا وسقطت دموعي غزيرة دون أن أدري ، نشج البعض ودماء الشهيد تسيل على الأرض السوداء حمراء قانية ورائحة البارود تختلط برائحة الزرع الأخضر . وعلى أكوام التراب وداخل البيوت المهدمة جلس الجنود في حزن وقد أحس كل بفتور شديد وجثة الشهيد مسجاة على الأرض ومغطاة بالحشائش الخضراء .

جاءت عربة الاسعاف لتقله إلى مقابر الشهداء . حمل الجثة أكثر من عشرين جنديا وقد غطت دموعهم ملابس الشهيد الميدانية .. صرخ البعض كالنساء تماما ، إرتمى البعض الآخر على الأرض خائر القوى ، تحركت عربة الاسعاف عبر الطريق الزراعي الضيق المتعرج ، ووقف الجميع ليكون ويلوحون للعربة حتى اختفت تماما .. قلت وأنا أغالب دموعي :

- لا يصح هكذا يا رجال .. هل نسقط نحن أيضا ..
صاح البعض :

- دمه في رقابنا جميعا ..

دق جرس التليفون الميداني .. وجاء الأمر بالتجمع حول المدافع من جديد والاستعداد للضرب . جرى الجميع بسرعة وارتمى كل على مدفع وانطلقت القذائف مدوية بمجنونة ، وجاء عبر التليفون الميداني مرة أخرى .. لقد دمرت مدفعيتنا مواقع العدو...

في تلك الليلة لم نـم .. كان هناك شيء أكبر من الفرح يبيت
معنا في الحنادق .. لقد انتقمنا لزميلنا .. نعم .. لقد وهبنا دمه
شجاعة ونورا كنا نحتاج إليهما، وعندما انفردت بنفسي تذكرت
كلمات الحبير الروسي وقلت: عندما ألتقي به مرة ثانية سوف
أصححها له قائلا:

- بعض النظام وبعض المسؤولية وبعض الإخلاص ..



الثلاثاء ٢٧ مايو ١٩٦٩

كانت ليلة قمرية .. ضوء القمر الفضي يتسلل داخل طرقات القرية الضيقة، وبين أشجار النخيل تكون الرؤية في مثل تلك الليالي واضحة تماما ، وذلك يطمئن جنود الحراسة الليلية حيث يمكنهم أن يلمحوا أي شيء يتحرك ..

استسلمت للنوم العميق بعد أن لففت جسدي بإحدى البطاطين لأحتمي من وخز الباعوض المنتشر بالمنطقة ، استسلم زميلي الصعيدي الراقد معي في الحجرة للنوم وأخذ شخيره يعلو في صوت واضح ، نباح الكلاب لا يتوقف ، مواء القطط لا ينقطع كلما قابلت كلبا ، نقيق الضفادع في التربة المجاورة يعلو حيناً ويتوقف حيناً آخر .. وعلى هذه الأصوات جميعها استسلمت للنوم واسترسلت الأحلام تنطلق بلا رابط ، الفدائيون الفلسطينيون يشنون العرب في صفوف الجيش الاسرائيلي ، قتلاه يسقطون ، الجيش الاسرائيلي يستخدم مدفعيته ..

كانت هناك طرقات متتالية على باب الحجرة ، كنت أظنه طلقات المدفعية كما كنت أحلم ، تزايد الطرق : أفقت قلقا وصحت :

- من أنت ؟ .. ماذا تريد؟؟

صاح عسكري الخدمة الليلية :

- سيبر جيشنا القناة هذه الليلة .. إحمل سلاحك وذخيرتك واستعد .. انتفضت واقفا .. نظرت في ساعة يدي ، كانت عقاربها تشير إلى الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل ، استيقظ زميلي في الحجرة ، كنا نتخط بعضنا ببعض ونحن نتلهف على لبس الخوذة وحمل السلاح استعدادا للهجوم ، كان صوت الضابط يصيح بشدة مع نداءات عسكري الخدمة الليلية لإيقاظ الجنود ، فتحت الراديو الترانزستور لأسمع شيئا عن ذلك من إذاعتنا ولكني لم أسمع إلا الصغير فقط ، أطفأت الراديو ، وقعت عيناي على غلاف الكتاب الذي كنت أقرأه (أصدقاء العرب) كتبه لفيف من الصحفيين السوفيت ، قلت في نفسي .. لابد أن الخبراء السوفيت أيضا في هذا الوقت يتجولون في المواقع فقد حانت ساعة الصفر...

الموقع الذي كان صامتا امتلأ بالضجيج ، الجنود يتدافعون كالسهام إلى الخنادق ، كشافات العدو الضوئية تنفلت إلى أعلى في سماء جبهتنا .. زميلي الصعيدي يتابع حركتها بعينين تلمعان في ظلمة الليل ويقول لي بصبر نافذ :

- آه .. نفسي أرى أولاد الأبالسة هؤلاء .. نفسي أشفي غليلي .

وانطلق قافزا إلى الخندق بين زملائنا .

أنفاس الجنود الرابضين وأيديهم على أرناد بنادقهم ومدافعهم الرشاشة تتلاحق ساخنة حارقة ، ونبض الدم يتزايد في العروق ، القلوب تدق ، والعيون كلها مثبتة على سيناء ، آذاننا تصيخ السمع

لتتلقف الأمر الذي طال انتظاره ، البعض نطق الشهادة والبعض الآخر رسم الصليب على صدره ..

- الكلّ مستعدون يافندم .. على أتم استعداد.

هكذا تحدث الضابط في التليفون الميداني .. وقد صممتا جميعا متلهفين لسماع أي شيء عن ساعة الصفر:

- الساعة الرابعة والنصف الآن .. نعم ياسيدي .. الموقف جيد للغاية.

..... -

- سأفعل ولكن لا أعرف ماذا ستكون النتيجة ... إنهم متحمسون وكأنهم ذاهبون إلى الجنة.

..... -

وضع الضابط الساعة وأخذ ينظر إلينا حائرا .. وبادره أحد الجنود قائلا:

- لا يبدو ظاهرا أي شيء يدلّ على أننا سنعبّر الليلة.

وتساءل كثيرون آخرون في أصوات متلاحقة :

- متى سيبدأ الهجوم ؟ .. متى سنعبّر القناة ؟ ... ماذا ننتظر؟؟

سحب الضابط رشاشه عن كتفه ثم ركزه على الأرض واتكأ بكلتا يديه على فوهته وقال وهو يدير نظراته بين وجوهنا المتسائلة المتلهفة :

- إنكم رجال .. كلكم رجال .. ونحن نثق بشجاعتكم وإخلاصكم ... لقد كان كل ما حدث مجرد اختبار .. أردنا فقط أن نعرف ماذا ستكونون عليه عندما تحين المعركة الفاصلة.

قال هذه الكلمات ثم حمل رشاشه وانصرف مسرعاً، فقد زجر الكثير من الجنود وألقى بعضهم بخوذته الحديدية على الأرض في حلق .. وجلس البعض الآخر في مكانه ينفخ من الغيظ .. أما أنا فقد شعرت أنني أدور حول نفسي دون وعي مني إلى أن إرتطمت بزميلي الصعيدي الذي أخذ يصيح ويلوح يديه في الهواء :

- وماذا كنتم تظنوننا سنفعل .. نترك المعركة وننام؟؟ ..

- ليتني قضيت هذه الليلة في الشخير!!



الاثنين ٢ يونيو ١٩٦٩

- آثرت النوم في تلك الليلة مبكرا رغم اشتداد طلقات المدفعية، ورغم الصوت المزعج لانفجارات قذائف العدو، شددت أطراف الغطاء لأخني وجهي من هجوم البعوض ورحت أغط في نوم عميق، لكنني فوجئت بخطوات ثقيلة تتجه نحو الغرفة، ثم ضربات قوية على الباب الذي كنت قد أحكمت إغلاقه، صحتو قلقاً، نظرت إلى ساعتني بعد أن أشعلت عود ثقاب، كانت العقارب تشير إلى الثانية والثالث بعد منتصف الليل، زعق الطارق بصوت عال:

- قم .. هناك جرحى في كسيتنا ..

قفزت واقفا وجسدي يرتعش، وأعددت حقبيتي، وبعد لحظات قليلة كنت قد أحكمت الخوذة على رأسي، وصحبت الجندي الذي جاء ليستدعيني في الطريق إلى العربة التي تحمل الجريح، وكان قد تكوّم في صندوقها وهو يصرخ بصوت عال من شدة الألم، قفزت إلى جواره وأمرت السائق بالتحرك إلى المستشفى العسكري الذي يبعد حوالي ١٥ كيلومترا عن مواقعنا، أخذت أضمد جراح الجندي وأضع الأغذية تحت فخذيه حتى أريحه قدر المستطاع .

قال الجندي الذي جاء ليستدعيني مشيرا إلى المصاب ..

- إنه وطني أكثر من اللازم...

تعجبت وقلت : ما الذي تقصده ؟

- احتسب جميعنا بالحنادق أثناء الاشتباك .. إلّا زميلنا هذا ..

قرر أن يقف بسلاحه حراسة على المنطقة...

قلت مقاطعا إياه :

- جندي شجاع...

ضحك وقال :

- وطنية خائبة لا داعي منها...

كدت أقذفه من صندوق العربة لكن صيحة عالية من جندي

الحراسة حالت دون ذلك... اقترب الحارس يسألنا عن كلمة

السر، فأخبره السائق بها ثم أضاف :

- معنا جريح يتزف...

أشار إلينا جندي الحراسة بالمرور...

تحركت العربة .. نظرت للجندي بجواري في ظلام الليل

الحالك .. ووددت أن أكمل حديثي لولا أن الجريح صرخ

بشدة ، قمت إليه وأسندت رأسه إلى صدري وأمسكت بيدي

الجراح التي تتزف من ساقه حتى وصلت بنا العربة إلى المستشفى،

فسلمناه وعدنا مسرعين يخيم علينا الصمت والسكون.

نظرت إلى ساعتي كان ضوء الفجر قد تسال على سطح بحيرة

المتزلة ، وكانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف ، فقررت أن

أقضي بقية الليل ساهرا حتى الصباح...

جاءني ذلك الجندي الذي إصطحبني في أول الليل وكان يبدو

عليه الأرق .. وقال :

- لا أستطيع النوم ...

قلت له :

مارأيك أن نتجول مع شروق الشمس في هذه القرى المهدامة ..

واقفني سريعا فضينا صامتين يبلل أقدامنا ندى الصباح ، ويطير من جوارنا الأوز البري ، وتمرق عربات التعيين مسرعة ، دخلنا إحدى القرى ، كانت مهدامة تماما ، اقتربنا من إحدى الترع التي تنمو بها الحشائش الكثيفة ، نفذت إلينا رائحة كريهة للغاية .. اقتربنا نستطلع الأمر .. قلت :

- يبدو أن أحد الكلاب قد أصيب بشظية قاتلة ...

اقتربنا أكثر وتسمرت عيوننا وتجمدت أطرافنا عن الحركة ... كدت أصرخ ولكني لم أستطع ، فقد كان أحد الجنود ملقى في التربة محتضنا سلاحه وقد اخترقت جمجمته شظية من شظايا العدو ، كانت الجثة متعفنة تماما ، ملابسه قد صبغتها شحوم جسده والديدان الصغيرة تنهال على كل مكان فيه ، ويبدو أنه قد أصيب منذ شهر تقريبا ، حين فقد العدو صوابه وحطم القرية عن آخرها ، كانت جثته ملتصقة تماما بقاع التربة . عندما أفقت من هول المفاجأة ، قررا أن أرى أوراقه ، نزلت إليه ، مددت يدي إلى أزرار سترته فوجئت بصديري فلاحني تحت ، ومن أحد جيوبه الكبيرة أخرجت لفافة من الورق وقد تشربت تماما بشحوم جسده ، كان الدود يقفز بين يدي وأنا أفتش بين الورق عن كلمة لم تنمحي بعد ، وقعت على بطاقته ..

قرأت :

الاسم :

المهنة : فلاح ..

البلدة : أبو صوير

تاريخ الإلتحاق : سنة ١٩٦٧ .

وعلى البطاقة من الخارج كتبت تلك العبارة (المقاومة الشعبية) .

نظرت في صورته لكنها كانت مطموسة تماما ، قررت أن أرى وجهه الحقيقي ، شددته من كتفيه ونظرت إلى وجهه فلم أتبين له أية ملامح مطلقا ، فأسندته من جديد وقفزت من الرعدة إلى حافتها حيث كان يقف مرافقي ذاهلا ... قلت له :

ما رأيك ..؟؟

قابتلع ريقه بصعوبة وقال والدموع تهبط غزيرة من عينيه المحمرتين ..

- كلهم أبطال يا أخي ... كلهم أبطال ...

(٥) السيارات العسكرية المكلفة بحمل طعام الجنود قبل توزيعه عليهم .

الأحد ١٤ سبتمبر ١٩٦٩

هو عامل خراطة في أحد الورش ولكنه الآن يعلق إشارة الجبهة الحمراء في أعلى ذراعه الأيمن وداخل السترة يضع كراسة متسخة الغلاف، لا تستطيع أن تقرأ عليها إلا هذه الكلمات (المؤلف والكاتب الكبير المقاتل...) . في كل صباح يتجه إلى أشجار النخيل التي تحيط المبني وينتزع منها جريدتين ويتجه إلى مكان بعيد ثم ينحني لينتزع جريدتين كان قد غرسهما من قبل ليضع الاثنين الخضراوين ويقف قليلا ويتمتم ثم يعود إلى قدور الطعام* وينحني عليها لينظفها.

أخيرا عرفنا سر ذلك الجندي ، في ذلك المكان الذي يتجه إليه كل صباح يرقد أحد الكلاب ، كان قد مات اثر إصابته بشظية من شظايا العدو ، فحملة ودفته وظل وفيا لذكراه ، مواظباً على غرس الأوراق الخضراء فوق قبره ..

جاءني أحد الجنود يلح في كتابة خطاب له ، انطلقت المدفعية المضادة للطيران تصنع آلاف النجوم في عز الظهيرة ، طائرات العدو تلقي قنابلها على المنطقة ، ألقىت بنفسي وزميلي في الحندق ، كانت الورقة ماتزال في يدي ، أصر أن أكتب له الخطاب .. فقلت له :

- أليس من الواجب أن نأخذ حذرنا أولا من الانفجارات الدائرة.

قال :

- أكتب لي .. ربما يكون هذا آخر خطاب ..
فأمسكت يدي بالقلم وثبتت الورقة وأخذت أكتب والأرض تهتز من شدة الانفجارات حولنا ، كانت عيناه تنغمران في الورقة محاولا قراءة ما أكتب .. قال :

- اكتب لهم .. إني قريبا سأحضر لهم رأس موشي ديان ..
تعجبت . قال :

- فلاحو قريتنا يستحلفونني أن أحضر لهم رأس موشي ديان ..
أسقطت طائرة من طائرات العدو قطعة من جسدها وأسرعنا مع بعض الجنود إليها ، طلقنا الأسلحة الصغيرة توجه إلينا ، رقدنا على الأرض وظللنا نرحف ، انفجر ذلك الجزء واحترق .. قال أحدنا :

- لا بد أنه الحزان الاحتياطي تخلصت منه الطائرة ..
في المساء توقفت إحدى العربات الزل * لتفرغ حمولتها من طلبة الجامعات المتطوعين لخدمة الجبهة . التف الجنود حولهم وهم سعداء للغاية .. وقالوا :

- إن الشعب مازال يتذكرنا .

قال بعض الطلبة :

(٥) نوع من السيارات العسكرية الروسية المخصصة لنقل الجنود .

- جئنا لترفع روحكم المعنوية ..

ضايقتنا تلك الكلمة ، فنحن لا نريد الثروة ، وفي الليل دارت مناقشة طويلة ، جنود الجبهة يصرون على إقناع الطلبة بأن العمل الرئيسي لهم يجب أن يكون إعداد المخابئ وتحصين المنطقة ، ثم بعد ذلك يمكن أن يكون هناك حوار فكري .. تأفف البعض من الطعام ، وقال واحد من بينهم :

- كنّا نظن الجبهة أحسن من ذلك ..

قلنا لهم :

- فلتعملوا ما في استطاعتكم حتى تكون كما تتمنون ...

لا يجب أن يكون الكلام هو ثروتنا ، بل العمل ؛ إن رصاصات العدو هي أبلغ من كل ثروة فهي تعلمنا كيف نكيل له الضربات ، وهذا هو علاج القضية .. قال واحد منهم :

- قال لنا قادة الاتحاد الاشتراكي أن مهمتنا هي أن ترفع روح

الجنود المعنوية وأن نعلمهم .. لكن يبدو أننا سنتعلم منكم ، وأنكم أنتم الذين سوف ترفعون روحنا المعنوية .

سأل طالب بعض الجنود المتحمسين عن مهنتهم قبل التجنيد :

- مزارع

- سائق أجرة

- عامل خراطة

- طالب ..

الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٩٦٩

تمكنت إغارات الطيران الاسرائيلي على مواقعنا من إلحاق خسائر فادحة بالفلاحين ، ورغم ذلك أصرّ البعض منهم على البقاء ولكن هؤلاء تركوا القرية وعاشوا في العراء وسط مزارعهم ، ومنذ أسبوع انقطعت المياه عن التربة الوحيدة التي تروي أراضي المنطقة ، سقطت فيها أكثر من قنبلة وقذيفة مدفعية ، تدفقت منها المياه العذبة إلى البحيرات المالحة ، وجفت التربة تماما من الماء الصالح للري . وكان قرار باقي الفلاحين هو الرحيل إلى محافظة الشرقية بحثاً عن الرزق في أرض آمنة . أصبحت المنطقة خالية منهم تماماً ، الزرع الأخضر يذبل ويتساقط من العطش . أحد الفلاحين ترك حماره الذي أصيبت إحدى أرجله بشظية إصابة خفيفة ، الحمار يتجول وسط الحضرة الذابلة يأكل وينام ويجري مذعورا عندما تنطلق المدفعية تدوي وتعلو انفجاراتها ، كنا نحس بالألم ، وبتنا نشعر أن ذبول الزرع في أرضنا الطيبة هو ذبول في نضرتنا أيضا ، وجفاف للدماء التي في عروقنا .

أصبحت الأرض مقفرة والقرية أطلالا تملؤها الكلاب ، تسكن فيها وتتناسل ، حتى الققط تكاثرت بشكل ملحوظ ، نباح الكلاب لا ينقطع ، أصبح يشكل ضرا بالنسبة لنا ، في الليل الحالك لا يتوقف نباحها ، همس لي أحد الجنود ذات مرة :

- هذا النباح أشك فيه .. ربما يكون أحد جنود العدو قد تسلل إلى منطقتنا ..

ويزداد النباح وتزداد الشكوك ، لكن الكلاب تؤنس المنطقة ونجعل للأطلال المهدمة قيمة ، فنباحها يشعرنا بأن هناك قطعة من ريفنا مازالت موجودة .

قرانا المهدمة تسكنها الكلاب والقطط وجيوش الذباب تطن في شوارعها ، في أحد البيوت قد تجد فأسا تأكلت من الصدا ، أو جاروفا أو منجلا معلقا على الحائط ، لابد أن صاحبه يصر على العودة .. اتفقنا فيما بيننا ألا نعبث في الأدوات الزراعية التي تركها أصحابها ..

وفي هذا الصباح كنت أقف داخل الحندق .. مجموعة من الرجال تمر بالقرب مني .. لم أصدق عيني ، دعكتها بكفي مرات حتى أرى بدقة ، قفزت خارجا من الحندق ، كانوا مجموعة من الفلاحين يعملون الفؤوس والعصي ، ألقوا على تحيهم ، فرجت بهم وأنا أكاد أطير من الفرحة .. قال أحدهم :

- جئنا لترزع الزراعة الشتوية ..

قلت :

- والمياه ؟ ..

قالوا :

- سندهب ونصلح ما أصاب التربة من تخريب ..

ورغم أن الاشتباكات تجددت ثانية في تلك الساعة المبكرة .. إلا أنهم قرروا الذهاب على الفور إلى التربة لإصلاحها .. وهم

يقولون بعزم :

- إذا أصابتها مدفعية الإسرائيليين فسوف نصلحها مرة ثانية

وثالثة وعاشرة إذا لزم الأمر. بعد دقائق تسرب النبا إلى جنود

المنطقة .. كل من يلتقي بصاحبه يقول له في فرح شديد:

- ألم تعرف ؟.. لقد عادوا ثانية ..

ويسأل زميله :

- من ؟

فيجيبه :

- الفلاحون...!!!



السبت ٢٠ سبتمبر ١٩٦٩

كانت أشعة القمر تتسلل داخل القرية المهذمة ، وكان الهواء المنعش يهب علينا قادما من بحيرة المنزلة ، وجندي الإشارة يتجه مسرعا ليلبغ الجنود قائلا :

- الليلة ستعبر من أمامنا وحدة من قواتنا الخاصة .

ونحن نفهم أنه في ليالي العبور يجب أن تظل جميع أسلحتنا على أتم استعداد حتى الصباح وحتى تنهي قواتنا الخاصة من تنفيذ مهمتها .. جنود المدفعية في لحظة تامة وعلى استعداد في أية لحظة لإطلاق النار على مواقع العدو في سيناء ..

زميلنا الذي يرقد على حافة القناة وقد خبا التليفون الميداني تحت معطفه العسكري حتى لا يسمع صوته أحد من جنود العدو .. يبحثنا صوته عبر الأسلاك قائلا :

- وصل جنودنا .. إنهم جاهزون للعبور .. يدخلون بغزارة وبعضهم يدندن بأغنيات عن الوطن والأهل...

ارتعشت أجسادنا ونحن نحمل أماكننا بطول الحنادق وأسلحتنا على أتم استعداد للاشتباك ، اهتز التليفون من جديد . وقال زميلنا الرابض على حافة القناة عبر التليفون الميداني :

- الصمت يخيم على الجميع الآن إلا من رشقات أكواب

الشاي وتدخين السجائر :

- لحظة الصفر اقتربت ..

إحتضن كل منا سلاحه وتحسس ذخيرته .. انطلق الجندي النوبي الأسمر الذي يقف بجواري في الحندق يغني بالنوبية أغنية لم أفهم معناها ، لكنها كانت مؤثرة للغاية ، دق جرس التليفون ، سكك الجندي النوبي وقال الذي على شاطئ القناة :

- الآن يعبر مياه القناة الزورق الأول يحمل رجالنا .

وكانت تصل آذاننا صيحات خافتة تقول .. ربنا معكم .. ربنا معكم ..

لم نمالك عواطفنا... انطلق الجندي النوبي يغني من جديد ، صوت خرفشة في الحشائش القريبة منا ، أحد الجنود يزحف ليستكشف الأمر ويعود قائلاً :

- إنه أحد الكلاب .

التليفون يدق من جديد :

- القارب الثاني يحمل رجالنا عبر مياه القناة .. كونوا على استعداد لتحملوا ظهور الرجال . رقدنا في يقظة تامة .. عيوننا تحترق الظلام والجدران المهتمة .. آذاننا تصغي لكل حركة .. قال الذي بجواري :

- لو كنت معهم .. إنهم أبطال ..

قال آخر :

- نحن نسند ظهورهم أيضا ..

فجأة انطلقت قذيفة تصفر في الفضاء وتعبق القناة لتنفجر في

مواقعا .

قلنا :

- لابد أن العدو اكتشف العملية .. إذا ستكون ليلة مشهودة .. قتال بالسلاح الأبيض و قتال بالمدفعية ، كنا نتمنى أن نقفز من خنادقنا إلى سيناء لنكون مع هؤلاء الرجال ، إن رؤوسنا تكاد تنفجر ونحن نفكر فيما يفعلونه الآن ، هل أصابوا الهدف فأطلق العدو هذه القذيفة من مدفعيته ، مدفعيتنا تلتزم الصمت ، غرقنا في الاستفسارات ، طلقة مضيئة من العدو تبدد الظلام تماما ، أصوات عديدة تتسابق لتلقي الأوامر إلى المدفعية بالتزام التوقف عن إطلاق النار ، نعم .. حتى لا يعيق القصف رجالنا في نضالهم مع العدو ، مرت ساعة ، ساعتان ، إنطلق زميلنا النوبي يغني من جديد ، قال لابد أن الرجال يكيلون للعدو ضرباتهم المتلاحقة مادامت مدفعيتنا لم تشبك حتى الآن .

دق التليفون جاءنا صوت الجندي الذي يرقد على شاطئ القناة .. قال :

- عاد الزورق الأول والثاني ... الجنود يقبلون بعضهم بعضا .. يحملون اثنين من الجرحى .. يقولون لقد دمرنا الهدف ، وزرعنا المتفجرات في كل مكان .. وفي خنادقنا كنا نتبادل القبلات .

كان الليل قد أشرف على نهايته وضوء النهار يكتسح أمامه ما تبقى من سواد الليل ، لم أستطع النوم ، وكذلك زملائي أيضا .. كنا نود فقط أن نستريح لكننا فوجئنا بالمدفعية المضادة للطيران تنطلق بشكل صارخ ، والتفتنا إلى السماء لنجد طائرات العدو

تخلق على ارتفاع شامق.

قلنا :

- لا يهم لقد أصبنا الهدف .. والدليل هو هذا الهجوم
المحموم ..



أصبح من الواجب على الإنسان منا وهو يمشي بمحاذاة القناة أن يكون حذرا ، ففي بعض المناطق الممتدة بطول الجبهة يرقد بعض القناصة الاسرائيليون يتحرسون بعرباتنا ويطلقون عليها الرصاص ، وكثيرا ما كان السائق يسرع بسيارته حتى يتعد عن المدى المؤثر لطلقات العدو .. في ذلك الوقت يفتح جندي القناصة المصري نيران بندقيته على الجندي الاسرائيلي فيفر ويختبئ خلف الدشمة ، ولكنه يعود من جديد ، لذلك فلا بد أن نأخذ حذرنا في تلك المناطق .

مرت فوق رؤوسنا طائرتان للعدو ، قابلتها مدفعيتنا المضادة بعنف فعادتتا من جديد وألقتا بمحمولتيهما من المتفجرات في مياه القناة .. المدفعية الثقيلة للعدو تفتح فوهاتنا علينا .. اختبأ كل منا في أقرب مكان ليحمي نفسه من الشظايا المتطايرة .. الفلاحون أيضا يرقدون على بطونهم فوق الأرض التي يستترعونها بلا حراك ، وبعد أن ينتهي الاشتباك تعود الحياة من جديد ، يفلح الفلاح أرضه ، ويذهب كل جندي إلى حيث يقصد وكأن شيئا لم يحدث . كان الطريق طويلا ، وكان العرق يتصبب منا مختلطا بالرمال والتراب ، وبعد مدة غير قصيرة لحقت بنا إحدى السيارات العسكرية ، استوقفناها وألقينا بأجسادنا داخل صندوقها ، تشكيلة

مختلفة من الجنود... ذاك يلبس الخوذة الحديدية وفي يده سلاحه ، وهذا بملابس الإجازات ومعه لفافة ، وذاك يحمل كيسا للبريد ، وآخر مستغرق في قراءة جريدة تطل منها صورة كبيرة عن الجنازة التي أقيمت للمقدم البحري الذي استشهد في المعركة حول جزيرة «شدوان» .

قال جندي البريد :

— أليس هناك غيره استشهد في المعركة؟؟

قال الذي بجواره :

— هم يهتمون بالرتب الكبيرة فقط ، فهم وحدهم الشهداء ، أما نحن فكلاب أولاد كلاب .. ثم بصق ، وطارت بصقته من صندوق العربة إلى عرض الطريق . قال جندي كان يجلس معنا :
— استشهد الكثيرون من الجنود أمثالنا ، فلماذا لا نحتفل بهم ..
أليس ذلك عجيباً؟؟

حسم صاحب الجريدة الحوار ، فقد مزقها وألقى بها إلى الطريق .

عند إحدى نقط تفتيش الشرطة العسكرية توقفت العربة ، ولمحنا أحد الجنود على البعد يجري نحونا وهو يزق طالباً أن يركب معنا . امتدت الأيدي تمسك به حتى ألقى بجسده معنا داخل صندوق العربة ، وما إن اعتدل في جلسته حتى برزت علامة معلقة على كتفه كُتب عليها (الاستطلاع) ، والذي لفت نظرنا أكثر أن هذا الجندي كان يحمل معه بندقيتين آليتين ، واحدة نظيفة جداً ، والثانية يعلوها الصدأ بشكل ملحوظ وكذلك جراب الذخيرة وقد صدأت الذخيرة

بداخذه فصيحته بلون بني قاتم.

قلت في نفسي لا بد أن للبندقية قصة هامة ، فلما أن صاحبها قد
أنقذ بها في أي مكان وهرب ، أو أنها انتشلت من الماء ، ولما لمح
الجندي ما يعالو وجوهنا من علامات الدهشة والاستفسار نظر إلينا
نظرة اختلط فيها الحزن بالفخر وقال :

- الله يرحمه .. مات شهيدا بحق ...

قلنا له في صوت واحد :

- من ؟

قال وهو يمسك بالبندقية الصدئة ويلفها في يده :

- صاحب هذه البندقية .

ارتعشت أجسادنا واقشعرت ، وطلبنا منه أن يتكلم ... قال :

- تذكرون العبور الذي حدث في جزيرة «البلاخ» منذ

أسبوعين ؟ ..

قلنا : نذكر ..

قال : لقد اشتركت في هذه العملية أنا وزميلنا الشهيد ، كنا بعد
أن عبرنا القناة متسترين بظلمة الليل في مهمة لاستطلاع قوات
العدو المواجهة للمنطقة ، وبعد أن حصلنا على المعلومات المطلوبة
وزرعنا الألغام اللازمة ، عدنا من جديد والظلام الدامس لا يسمح
للإنسان بأن يرى قدميه وهما تمشيان على الأرض ، لكننا سمعنا
أصوات همس خفيفة فاستدردنا وفتحنا نيران بنادقنا ، وأطلق العدو
طلقات طائشة . كان علينا أن ننسحب على إثرها بسرعة ، وعادت

القوة تعبر القناة إلى الضفة الغربية من جديد بينما ظل زميلنا يستمر
عملية الانسحاب بطلاقات عشوائية من بندقيته . مر أسبوعان كاملاً
بعد ذلك . وبعضنا يخمن أنه أسر والبعض الآخر يظن أنه ربما
يكون قد قُتِلَ .

وفي هذا الصباح كنت ومجموعة من زملائنا في الاستطلاع
نتجول نحذر على شاطئ القناة . فظهرت أمامنا جثة أحد جنودنا
طافية على سطح الماء ، فترلنا اليه وحملناه .. وكانت مفاجأة
مذهلة لنا ، فقد كانت جثة زميلنا وكان في وضع استعداد قابضاً
على بندقيته هذه ، قاضاً وهو يحرك أمام أبصارنا البندقية الصدئة ثم
التفت إلينا وقد أنصتنا جميعاً إلى كلماته دون أن نلقي بالا لمطبات
الطريق التي كانت تتقاذفنا بقسوة .. ثم واصل حديثه وقد ثبت
بصره على فوهة البندقية :

— كان قابضاً عليها بقوة وفي الماسورة طلقة ، ثم أخذ يرينا
الطلقة .

— لم تنطلق كما كان يجب ، فقد سقط في الماء وفي رأسه
رصاصةتان وظل في القاع لمدة أسبوعين .

وصممتا فلم يعد هناك شيء يمكن قوله ، العربة مازالت تتروهي
تقطع الطريق بسرعة .. توقفت ... نزل الجندي وقد احتضن
السلاح الصديء تحت إبطه ، ومضت العربة ثانية ونحن ننظر إليه من
الحلف والبندقية بارزة من تحت إبطه لا تختفي عن أنظارنا ..

الأربعاء ٢ أكتوبر ١٩٦٩

مازلت أذكر يوم أن توقفت العربات العسكرية لتفرغ حمولتها من شباب الجامعات المتطوعين لخدمة الجبهة في وحداتنا المقاتلة منذ خمسة عشر يوما. قال لي رئيس اتحاد طلاب إحدى الكليات الأزهرية :

- نحن لا يهمننا الموت .. نحن نريد ان نتعاون مع جنودنا
البواسل وفي أي مكان .. سألته :
- كم طالبا جاؤوا إلى الجبهة ؟
قال :

- من جامعة الأزهر فقط خمسمائة طالب قبلناهم من بين
١٥٠٠ طالب تقدموا لخدمة الجبهة ، وكانت مشكلة تخلصنا منها
عن طريق الكشف الطبي .

والحقيقة أنه من أول لحظة اندمج طلبة الجامعة مع المقاتلين ،
حمل كل طالب الفأس والمجرفة وأخذ يعمل حتى تصيب منه العرق
غزيرا ، وكلما طلب منهم الجنود أن يستريحوا قليلا قالوا في حماسة :
- راحتنا في أن نضع على ملاجئكم أكبر كمية من الرمال حتى
يمكن أن تحميكم من شظايا العدو .

وتحت لهيب الشمس المحرقة تجدد طلبة كليات الطب والعلوم

والهندسة وهم يحملون الفؤوس ، ويقسمون أنفسهم إلى مجموعات ، فهؤلاء يحفرون الملاجئ ، وهؤلاء يعمقون الخنادق ، وهؤلاء يساعدون الجنود في تمويه المنطقة ، وعلى سيارات توزيع الطعام نجد طالب اللغة العربية وأصول الدين يقوم بتوزيع الغذاء على الجنود أو يحمل على ظهره قطع الحشب وأجولة الأرز إلى المطبخ وهو في غاية السعادة .

وعندما تنسدل ستائر الليل على الجبهة ، فإنها تكون مظلمة للغاية ، خالية من أي بصيص من الضوء لكن عيون الآلاف من جنودنا تحترق هذا السواد الحالك والأيدي على الزناد تحرس أرض الوطن من تسلل العدو ومن غدره . وداخل الملاجئ المحفورة بعمق تحت الأرض ، وحول الضوء الخافت المنبعث من مصباح صغير ، يجلس الطلبة والجنود في دائرة واسعة وهم يرتشفون أكواب الشاي ، ويدور حديث حميم عن مشاعر الشعب وثقته في جنوده ، وكثيرا ما يلهب الحديث عن جرح مصر الغائر ، وعن قضية فلسطين ، وعن الاشتراكية ، وكيف نسخر كل إمكاناتنا من أجل معركة الخلاص .

في مكان آخر تمكن طلبة الجامعات من تنظيف أحد المساجد المهتمة ، ثم دعوا الجنود إلى الصلاة ، وبعدها دار نقاش أيضا حول الجهاد في الاسلام ، لقد ذابت تناقضات كثيرة أمام قضية الوطن الكبرى ، أذابتها صورة طالب الجامعة وهو يقوم على خدمة طاقم المدفع بروح أخوية وشعور وطني صادق ، في الوقت الذي كانت هذه الخدمات البسيطة تؤثر في الجنود وتدفع فيهم حماسا وإيمانا بشعبهم يحتاجون لأن يلمسوه بين الحين والآخر .. قال أحد الجنود :

.. لقد نزلت خمسة عشر يوما سريعة متوالية .

وحين حلّ الوقت الذي كان على الطلبة أن يشدوا فيه رحاطهم إلى مدنهم وقراهم .. كان فراقاً قاسياً .. احتضن شباب الجامعة الجنود وقبلوهم في حرارة وشدوا على أيديهم وسالت فيه الدموع حارة . واذطلقت العربات من جديد تخرق المواقع الأمامية على طول الجبهة متجهة إلى حيث سيرحلون حاملين تحيات المقاتلين وخطاباتهم لعلمانة الأهل والأصدقاء ..

كم سيكون رائعا حقا أن تتكرر تلك اللقاءات لخدمة الجبهة ، فترسل القرى فلاحيها لخدمة الجبهة أسبوعين أو ثلاثة ، وترسل المصانع بعض عمالها وفيها أيضا ، إن ذلك سيرفع الروح المعنوية للجنود ولن يشاركونهم حياة القتال على الجبهة بنفس الدرجة .



الثلاثاء ٢١ أكتوبر ١٩٦٩

- توقفت العربة .. ألقى بجسده معي داخل صندوقها . ثم تكوّم في أحد الأركان ، تحركت العربة في سرعة شديدة فنحن نمر أمام منطقة يتمكن منها العدو ، ويستطيع أن يصيبنا حتى بأسلحته الصغيرة .. نهّد زميلي وزفر بصوت عميق :

- يارب .

ثم تكوّم من جديد ، عيناه متورمتان يبدو عليهما التعب والإرهاق الشديدان ، كنت أفكر فيما يمكن الحصول عليه من الأدوية اللازمة للجنود ، كنت غارقاً في خواطر عديدة ، لكن ذلك الجندي جذبني وشدني من خيالاتي ، كانت العربة تتكتك ورائحة البنزين تملأ أنوفنا ، هي والتراب المنبعث إثر حركتها ، الجنود مرابطون خلف المدفعية للطيران أحدهم يمسك المنظار ويدقق النظر باتجاه العدو... باتجاه العدو ..

التفت إليّ الذي معي بصندوق العربة وقلت له :

- هل حدث لك شيء؟؟

قال وكأنه يخفي شيئاً :

- لا شيء ..

قلت :

- لا نخبي شيئاً في نفسك .. قد تموت الآن بطلقة واحدة .
فكّ يديه المعقودتين حول ركبتيه وقال :
- هل سمعت عن عبور الليلة الماضية ؟

قلت :

- سمعت ذلك من الراديو وعرفت من الجرائد أيضاً... قالت
الدوائر الرسمية أن العملية نجحت تماماً وعادت قواتنا سالمة ماعدا
جنديين .

وأضفت :

- لكننا لا ندري هل استشهد الجنديان أم ماذا حدث لهما .

قال الجندي وقد احمرّت عيناه وتساقطت منها الدموع :

- لقد كنت في عملية عبور الليلة الماضية ، كنا أكثر من مائة
جندي تحت قيادة أحد الضباط، عبرنا تحت جناح الظلام محملين
بالعبوات الناسفة والألغام والأسلحة الصغيرة مكلفين بمهمة
استطلاعية عن العدو، كان الجو باردا ومياه القناة أشد برودة لكننا
كنا نحس بدفء عجيب ونحن نضع أرجلنا على أرض سيّاء ..
مرت بنا ساعات عديدة ونحن نتجول في مواقع العدو الأمامية ..
دون أن يعترضنا أحد ، وزرعنا الألغام التي حملناها وحصلنا على
المعلومات المطلوبة ، قرر الضابط العودة إلى الضفة الغربية وأصدر
أمره بالانسحاب ، وعدنا ، كانت الدنيا أكثر ظلاما من ذي قبل
لكننا كنا نرى أرض مصر وتعرف أرجلنا الطريق إلى كل شبر فيها .
مدّ يده ليفكّ أزرار السترة العسكرية القديمة التي يرتديها ، وأخرج
علبة صفيحية صدئة ، وأخذ يلف سيجارة ، ثم أكمل حديثه ، كنت
منصتا له حتّى أنّي لم أعر انتباهها لأي شيء قد يحدث من حولنا ...
قال :

- قلت لك إن أرض الوطن غالية ، كنا نمشي في حسرة ونحن عائدین تلفنا ظلمة الليل، وفجأة إنطلقت الرصاصات من كمين للعدو، فانبطحنا جميعا على الأرض وصوبنا أسلحتنا في اتجاه الطلقات ، قال الضابط أسرعوا في العبور إلى الضفة الغربية ، أصيب جندي ولم يستطع المشي ، أخذ يزحف ، وسمعنا صوت عربات مدرعة للعدو تقترب ، يبدو أن الكمين أبلغ قوات العدو بوجودنا وكان يجب أن نعبّر القناة إلى مواقعنا بسرعة فنسينا كل شيء ، وأثناء عبورنا سمعنا زميلنا المصاب يزعم :

- يارب ... يارب ..

عاد إليه أحد الجنود مسرعا ليحمله .. حاصرتهم العربات المدرعة للعدو ولا نعرف هل أسرا أم أصبحا شهيدين .

قلت له :

- إن وراء كل خبر عسكري قصة بطولة استشهد .

قال :

- هل سيعرف الناس ذلك؟

قلت :

- لابد سيأتي يوم يعرف فيه الشعب كل الحقائق ..

توقفت العربة إثر صيحة عالية من أحد الجنود معترضاً طريقها ، قال الجندي للسائق :

- كيف تتحرك وهناك عمليات الآن ..

وعندما سمعنا ذلك قفزنا من الصندوق إلى الأرض مسرعين

إلى أي نجوياً أو ملجأ نختم في ، فقد كانت طائرات العدو تغير على مواقعنا في تلك اللحظة ، الطائرات تسقط حمولتها من المتفجرات وتترى ناراً من طلقات المدفعية المضادة ، وبعد دقائق توقف صراخ الغواة . إذا لقد فرت الطائرات ، خرجت أنا وزميلي إلى الطريق ، صراخ ينبعث من القرية القريبة منا ، اقربنا من الفلاحين وسألناهم عن الحبر فقالوا .. شظية قتلت إحدى الصبايا .. الجنود يضحكون في منطقة أخرى ... فقد سقطت إحدى القنابل بين تجمع من الكلاب التي كانت تجري مذعورة ، فقتلت عددا كبيرا والباقي أصيب بجراح . في المساء كنت قد عدت من مهمتي وقد أنهكتني أحداث النهار والكيلومترات التي قطعها العربة بطول القناة .

تمددت على البطانية وشددت بطانية أخرى فوق جسدي . . أشعلت أحد أقراص الوقود الجافة بعد أن صنعت له علبة تحمي ضوءه ماعدا فتحة تبعث بالضوء إلى صفحات إحدى الجرائد القديمة ، كان أحد الجنود قد أحضرها منذ يومين وهو عائد من أجازته ، تصفحتها في دقيقة ثم ألقيتها جانبا والغيظ يأكلني ... مازانا نضحك على أنفسنا ، مازالت مشكلة المشاكل هي كرة القدم ، نظرت في ساعتي ، كان موعد نشرة الأخبار المسائية قد اقترب ، أدت مفتاح الراديو ، المذيع يقول كبدا العدو خسائر جسيمة ... أطفأت الراديو وشددت الغطاء حتى قمت رأسي واستسلمت للنوم .

الخميس ٦ نوفمبر ١٩٦٩

.. كانت هذه الليلة ساخنة تماماً ، على الرغم أن اشتباكاتنا مع العدو في تلك الليلة قد توقفت ، ولم يكن هناك إلا طلقات مضيفة يطلقها فرق جبهتنا بين الحين والآخر . ذلك لأنه يخشى عبور قواتنا إلى سيناء في ظلمة الليل ، في هذه الليلة كنا نعرف أن مجموعة من رجالنا ستعبر القناة بعد منتصف الليل إلى موقع للعدو في سيناء ، وعندما يجيئنا مثل ذلك النبأ فإننا بالطبع لا يغمضنا جفن ولا يساورنا النوم ، وكيف ننام وبعض رجالنا يستعدون لمقاتلة العدو في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل .

موت غربتان يلفهما سواد الليل كان ينبعث منها صوت غناء ونصفيق عرفنا أنها محملتان بالرجال المكلفين بالعبور هذه الليلة .

قال زميلنا جندي الإشارة الراقدة على حافة القناة :

.. الرجال يعبرون بأسلحتهم الصغيرة ، أنهم سعداء للغاية ..
وانتظروا أنباء أخرى لكن شيئاً لم يحدث . ومازالت الطلقات المضيفة التي يطلقها العدو ترفق مواضعنا وبناء على ذلك فقد قررت الفكرة التي عبرت أن تحمل مواقعها في سيناء حتى الصباح .
وفي الصباح يطمئن العدو أكثر من الليل لأن الليل يشكل بالنسبة إليه شبحاً رهيباً يتمثل في رجال قواتنا الذين يزحفون في

الليل إلى مواقعه فيمزقون من تصل إليه أيديهم إربا . قال جندي الاستطلاع الواقف بأعلى إحدى أشجار الكازورينا :

— ... دبابتان وعربة نصف مجتررة محملة بالأفراد .

لم يكمل كلماته ... فقد انطلقت رصاصات الرجال الذين عبروا في الليل إلى سيناء : إنهالت طلقات أسلحتهم كالصاعقة على العدو ومعداته ، سمعنا صوت الطلقات ، قال زميلنا الواقف بأعلى شجرة الكازورينا :

— الدبابتان والعربة دمرت تماماً .. القوة تنسحب .. يبدو أن اثنين من الرجال قد أصيبا ، يحملهما زملاؤهما وهما يعودان .

قلنا ... يجب أن نحبي الرجال وهم يمرون بعرباتهم على مواقعنا في طريق عودتهم ، وبعد لحظات عادت عربتان تحمل كل منهما زورقاً ومجموعة من الرجال يبدو عليهم الإرهاق ، ملابسه مبللة بمياه القناة .. يضحكون .. فقد انتهت المهمة بنجاح .

مرقت إثر العربتين عربة إسعاف تجري بسرعة ... توقفت بالقرب منا .. اقتربنا ... قال المريض ودموعه تتساقط :

— كانت فيها الروح .. لقد استشهدا ..

كان جسد كل منهما مسجى على النقالة ... مبللاً بالمياه التي اختلطت بالدماء إثر جراح نافذة ، كانت على وجه كل منهما ابتسامة حزينة ، مات وهي مرسومة على شفتيه ، مدَّ المريض يده وشدَّ بطانية وغطى بها البطلين ، وانطلقت بهما السيارة إلى حيث المستقر الأخير .

عجبية الحياة على خط النار ، لكل دقيقة قصة ، وفي كل وقت

يمكن أن يحدث شيء جديد غير ما يتوقعه الإنسان . لذلك فإن
الفلاحين الموجودين بالمنطقة قرروا استزراع الأرض أيضا والتمسك
بها بدلا من الفرار، كلما أحسوا أن قراهم في خطر، وبين الحين والحين
تجدهم يرسلون واحداً منهم ليطمئن، فإذا عاد إليهم يحمل أخبارا
بأن المنطقة أصبحت هادئة ثانية فإنهم يعودون من جديد، ولو
رأيت مثلي صرخات الجنود الشجاعة وهم يقفزون قفزا خلف
المدافع ويرفعون عنها شباك التمويه، وفوهات المدافع وهي تتحرك
إلى أعلى، أو تنحني انحناءات خفيفة، كل واحد منا يعرف تماماً أنها
توجه إلى هدف من أهداف العدو الكثيفة وتنطلق منها الدنات تمزق
الهواء وتهز الأرض، فسوف تعرف لماذا لم يعد الفلاحون يفرون
خوفا من الانفجارات كما كان يحدث من قبل، بل أنك سوف ترى
فلاحا يقود ثورين يجران محراثا يحرق قطعة الأرض الباقية من حقله
بعد أن احتلت مواقع مدفعيتنا أغلب مساحتها، وهو يفرق بالسوط
في يده ليحث الثورين على العمل في الوقت الذي تكيل فيه
المدفعية ضرباتها للعدو، بعض النساء يحصدن الزرع، والأطفال
الصغار يعملون في صيد الأسماك من البحيرة؛ قد يتوقف البعض
أحيانا عن عمله - لا خوفا - لكن لكي يطمئن عما إذا كانت ضرباتنا
للعدو مؤثرة، أو ليعرف هل ضربات العدو لنا مؤثرة أيضا؟ وعندما
يطمئن إلى ذلك فإنه ينكب على عمله ثانية، وينطلق صوته
بأغنيات عذبة مؤثرة.

الأربعاء ١٢ نوفمبر ١٩٦٩

مع الرصاص ، وكلما اشتد القتال بيننا وبين العدو ، كلما ازداد تعلق الجنود وحبهم للزعيم الثوري الراحل أرنستو جيفارا ... في بعض الملاجئ نجد الجنود يعلقون صورا لهوشي منه ولجيفارا بلحيته الطليقة وشعر رأسه الكثيف والسيجار في طرف فمه ، أو لباس عرفت وعلى رأسه عقاله العربي وفي أماكن أخرى يعلق بعضهم لافتات كتبت بخط اليد تحمل كلمات جيفارا التي تقول « ليس هناك جنود سيئون إلا وفوقهم قادة أسوأ » ... وشعار آخر يعتز به الجنود ويعلقونه في أكثر من مكان « الاشتراكي هو آخر من يأكل وآخر من ينام وأول من يموت » .

وكلما أصبحت لغة الرصاص هي الحديث الأكثر فاعلية بيننا وبين العدو الاسرائيلي كلما برزت في الأفق صورة جيفارا ... وعندما يدور الحديث عن نضاله يكون للحديث شجن وعذوبة ووقع السحر على الجالسين وهم يتجاذبون أطرافه ، في ظلام الليل الذي ينجم على الجبهة .

والكثيرون بفتنهم الحديث عن جيفارا ...

لقد رأيت أحد المحاربين يطلق لحيته مثله ، وهو مفتول العضلات حسن البنية ، يطلق عليه رملاؤه « جيفارا » ، وجيفارا المصري لا يترك سلاحه من على كتفه ، ينام وهو يحتضنه كقطعة

غالية من جسده ، وهو حاصل على ليسانس في الآداب ، ولا يصوب سلاحه إلى العدو في الضفة الشرقية للقناة إلا ويصيب اهدف في أغلب الأحيان .

قال أحد الجنود :

- لو أن جيفارا مازال حياً ... هل كان سيأتي لمساعدتنا؟

قال جندي آخر :

- طبعاً جيفارا كان يحارب العدوان الأمريكي في أي مكان ...

ويتجمع البعض وتدور مناقشة ، ومن وراء الملابس العسكرية تعرف أن هذا حاصل على ليسانس الحقوق وهذا على بكالوريوس تجارة أو طب أو هندسة ... و ... و ...

كنت أحمل كتاباً من مذكرات جيفارا في بوليفيا ، وكان كل من يراه معي من زملائي المقاتلين يتعلق به ، ويريد أن يقرأه حتى أصبحت مشكلة ، كان حلها أن نقرأها حسب أقدمية الطلب . قال لي واحد منهم :

- إن كتابات جيفارا وأفكاره مثل الرصاص الذي نطلقه على العدو .. إنها تدمره أيضاً ..

أليست تلك الظاهرة تحيه رائعة يقدمها جنودنا على خط النار للثائر العظيم أرنستوتشي جيفارا في الذكرى الثانية لاستشهاده .

الثلاثاء ١٦ ديسمبر ١٩٦٩

بالأمس أسقطت طائراتنا المقاتلة طائرة فانتوم للعدو إثر اشتباك جوي دام أكثر من نصف ساعة في سماء الجبهة ، كانت الطائرات تلاحق بعضها بعضاً ، وتطلق الصواريخ ثم تجري في سرعة جنونية ، وأخيراً سقطت إحدى طائرات العدو في كتلة من الدخان كَوْنَت عاموداً سقط من السماء حتى التصق بالأرض ، إذاً فقط تحطمت أسطورة الفانتوم وجبروته ، وقد زادت تلك المعركة من ثقة جنودنا بأنفسهم وبقدرتهم على تدمير أحدث معدات العدو .

في صباح اليوم اخترق مجالنا الجوي عدد كبير من طائرات العدو في تشكيلات محددة لأهداف محددة أيضاً ، وفي ثوان قذفت بحمولتها من المتفجرات .. اهتزت الأرض بعنف لتتخلع قطعاً هائلة منها وتتناثر في الفضاء شظايا من الطين . جرى كل منا يضع الحوذة على رأسه ، ترك أحد الجنود فطوره وجرى الآخر وقد ترك نصف ذقنه دون أن يكمل حلاقته ، حملت حقيبة الإسعاف على ظهري وجريت إلى أقرب حفرة . فمن المتوقع أن تكون هناك خسائر في الأرواح ، عندما عادت الطائرات من جديد ، كان جنود المدفعية المضادة للطائرات الرابضين خلف المدفعية الثقيلة لحمايتها قد فتحوا النيران الكثيفة حتى بدت السماء وكأنها في رائحة النهار مليئة بالنجوم البيضاء اللامعة .. طائرات العدو ترتفع إلى أعلى متجنية

طلقات مدفعيتنا ، تحلق من جديد ثم تنقض بسرعة فائقة على الأرض لتسقط حمولتها الضخمة وتعود ثانية وثالثة ، وهكذا تحولت المنطقة إلى ظلام كثيف. الدخان يملأ المكان تماما والصرخات تعلو هنا وهناك ، عربة الماء تتوقف في الطريق ويقفز السائق في إحدى الحفر خوفا من الانفجارات ، موجة أخرى من الطائرات تعود ، جنود المدفعية المضادة يوجهون مدفعيتهم نحو الطائرات المغيرة ، لكن الطائرات تسقط بوحشية كميات ضخمة من المتفجرات وتفر هاربة .. بدأ صوت الطلقات المضادة يقل ويقل ، وترتب على ذلك أن النجوم البيضاء اللامعة كانت تقل في كثافتها هي الأخرى ، وكان الغبار والدخان كثيفان لدرجة أنها كانا يحجبان الرؤية لمدة طويلة .

توقعنا أن سرايا المدفعية المضادة للطيران قد حدث لها شيء ما وإلا فلماذا توقفت عن إطلاق مدفعيتها ضد الطائرات المغيرة ، توجهت مع بعض أفراد كتيبتنا لتقديم المساعدة لأفراد سرية المدفعية المضادة للطائرات والتي من مهمتها الدفاع عن كتيبتنا من الطائرات المغيرة المعادية .

كانت رائحة البارود خانقة ، ورغم ذلك كان يجب الإسراع في مساندة وإنقاذ الأفراد المصابين قبل أن يعود الطيران الاسرائيلي من جديد ، وقبل الموقع بمسافة قصيرة رقدنا على الأرض حتى لا يرانا طيران العدو فيطلق علينا مدافعه « الفيكرز » ، وظلنا نرحف حتى توسطنا الموقع ، كان الموقع قد دمر تماما ماعدا مدفع واحد ، خمسة مدافع أخرى بأفرادها دكتهما صواريخ الطائرات فتمزقت أشلاء الجنود مع المدافع ، وتحول الموقع إلى حفر عميقة غائرة في عمق

الأرض، كان قائد الطاقم قد بترت ذراعه اليمنى وقد أصيب كتفه الأيسر بشظية أحدثت فيه جرحاً عميقاً، وكان يبدو على وجوه الأفراد وقد غطاها التراب والدخان الدهول لما حدث لموقعهم.

أخيراً قرر الجنود أن ينسحبوا من الموقع فقد دمرته طائرات العدو ولم يعد مجديا العمل منه، وتحامل الجنود في مساندة بعضهم بعضاً وقد علق كل منهم سلاحه في كتفه إلا قائد المدفع فقد رفض أن يغادر الموقع ..

طلبنا إليه في إلحاح خوفاً على جراحه التي تتزف بغزارة، لكنه رفض، وعندما طلبت إليه أن أضمد جراحه رفض أيضاً وقال لي: - لا داعي فقد بترت ذراعي .. ضمد جراح الآخرين .. أراد أن يقنعني بأنه يتصرف بحكمة تامة فقال:

- ماذا سيفعلون بي أكثر من ذلك .. وما فائدة الحياة بلا ذراعين؟؟

كانت عيناه محمرتين ينطلق الشرر منهما، وقد غطاه التراب والدخان الأسود، وعندما اقترب صوت الطائرات المغيرة تركنا لناخذ الجرحى الآخرين إلى مكان بعيد أكثر أمناً، وفي هذه اللحظة رقد هو على ظهره وثبت أطراف المدفع بقدميه، وعندما حومت الطائرات المعادية حول الموقع وتأكدت من أنه قد دمر تماماً أقلت من جديد بحثاً عن موقع آخر، وأثناء اندفاعها بعيداً لحقت بإحداها طلقات متواصلة من مدفع واحد كانت فوهته تطل من بين الدمار، وخرج من إحدى أجنحة الطائرة الفانتوم شريط من الدخان وجرت مسرعة لتسقط في سيناء ..

عادت طائرات السرب في جنون لتلقي بكل حمولتها على الموقع المدمر ، وفي هذه المرة اختفت النجوم البيضاء اللامعة من السماء . وتوقف المدفع عن الطلقات : وعدنا ثانية لتفتح الجندي بالرحيل عن الموقع .. اخترقنا دخان البارود الكثيف والتراب العالق فوق الموقع إثر الانفجارات ، وبصعوبة لحنا جثته وقد تمزقت أشلاء ، اختلطت مع حطام مدفعه : فأهلنا عليها التراب وغرسنا فوقها أحد أعمود النخيل الخضراء : وبعد أن فرغنا من مهمتنا : تطلعنا إلى سبيلنا لنجد أن عمودا من الدخان يتصاعد إلى السماء ، قال رقيب أول الموقع وأنا أضمد له جراحه :

- إنه أسقط طائرة اسرائيلية .. لقد انتقم لنفسه .



الجمعة ١٩ ديسمبر ١٩٦٩

رغم أن القمر كان قد استكمل استدارته ، ورغم أن أشعته كانت تلون كل ما يحيط بنا في المنطقة باللون الفضي ، إلا أن ذلك لم يحرك مشاعرنا في شيء مثلما تتحرك مشاعر الكتاب والفنانين والشعراء ..

فع ضوء القمر عرفنا أن طيران العدو سوف يأتي ليلقي حمولته من النابالم على مواقعنا في الجبهة ، وعندما يذهب القمر تذهب طائرات العدو ، ومثل الليالي السابقة كنا نستعد لمقاومة الطائرات المغيرة علينا في هذه الليلة ، لكن ساعات الانتظار والتوجس واللون الفضي للأشياء ، وأطلال القرية التي نحتلها كتيبتنا ، وحفيف أوراق النخيل ، ونباح الكلاب بين الحين والآخر ، كانت جميعها تملأ قلوبنا بالشجن والوحشة ، كان الحندق ضيقاً ، وكنا أكثر من عشرة جنود نتكؤم فيه ملتصقين ببعضنا البعض حتى نحمي أنفسنا من البرد الزاحف علينا من سيناء ومن البحيرات الممتدة خلف مواقعنا العسكرية .

قال زميلي وهو يحدثني من تحت البطانية :

— هل تسمع ؟ .. أصوات معدات للعدو تتحرك في الضفة الشرقية للقناة ..

قلت :

- يبدو أنهم يتحركون بالدبابات في دوريات حراسة خوفا من عبور قواتنا .

قال وكأنه يهمس خوفا أن يسمعنا أحد :

- إنهم يحصنون أنفسهم جيدا ..

ثم تكوّر تحت البطانية وقال :

- أقول لك صراحة... العدو أصبح متمكّنا من جديد ..
ألست نخشاه؟

إقشعرّ جسدي لتلك الكلمات ، فإلى الآن لم نلتق بالعدو وجها لوجه حتّى نستخدم أنفسنا أو تسليحنا الشخصي في قتاله .

إنبعث من أحد أركان الخندق صوت شخير ، لقد نام زميلنا النوبي وبندقيته تحت رأسه .. وفي تلك اللحظة انطلقت إحدى الطلقات الصغيرة من بندقية أحد جنود الكتيبة المجاورة لكيتيتنا ولحقها صيحة عالية :

- حرس سلاح .. حرس سلاح ..

وانتقلت الصيحات على ألسنة عديدة في أماكن متفرقة ، ودق جرس التليفون الميداني ، رفع جندي الإشارة الساعة إلى أذنيه ، ثم وضعها في الحال وصاح هو الآخر بأعلى صوته :

- حرس سلاح .. حرس سلاح ..

قمنا مسرعين من الخندق يلكز كل منا الآخر ويستحثه ، لبس كل منا خوذته الحديدية وأحاط وسطه بحزام الذخيرة وأعد الطلقات في بندقيته أو رشاشه استعدادا للقتال . همس الذي يتكلم في

التليفون وهو يعد سلاحه أيضا ..

قال جندي الاستطلاع على القناة أن العدو يحاول العبور إلى الضفة الغربية بدباباته البرمائية.

ارتعشت أجسادنا .. كانت الطلقات الصغيرة تقطع وحشة الليل وصمته ، واحتمال أن نجني المصائب إلينا في أي دقيقة نجيم على خاطرنا جميعا ، ولكن بعد أن أخذ كل واحد منا وضع الاستعداد غمرت نفوسنا موجة من الشجاعة لا حد لها ، وأطلق البعض طلقات متقطعة من أسلحتهم في الوقت الذي كان العدو يطلق فيه طلقات حمراء باتجاه خنادق المشاة الممتدة بطول القناة ؛ لكن مدفعية ورشاشات جنود المشاة الرابضين على حافة القناة إنطلقت مرة واحدة بلا إنقطاع إلى الضفة الشرقية للقناة حيث يتربص العدو ..

أمر الضابط قائد المجموعة ثلاثة من الجنود إختارهم من أبناء «الصعيد» قائلا أنهم أكلوا من كبد الذئب * وأنهم أكثر جرأة من غيرهم ، أمرهم بالتقدم وعمل كمين على بعد نصف كيلومتر من مواقعنا حتى إذا لحوا أفراد العدو يتقدمون نحونا ، صوبوا عليهم النيران من الخلف .

وأطاع الجنود الثلاثة الأمر فورا ، ومشوا سريعا لتبتلعهم الحشائش الكثيفة التي تنمو بغزارة حول المستنقعات والبحيرات العديدة في المنطقة التي نعسكر فيها .

(١) يعتقد الريفيون أن الإنسان إذا أكل كبد الذئب يكتسب شجاعة عظيمة ويصبح جسورا .. [الناشر].

نسبنا برودة الليل تماما . ورغم أن القدر كان في طريقه للإختفاء ، إلا أن عيوننا كانت تحترق الغمام في حذر شديد بحثا عن العدو المتسلل ، وبين الحين والحين كنا نطلق من بنادقنا بعض الطلقات فتمزق الصمت المخيف الذي يحيم على المنطقة . لم يكن هناك أي شيء نفكر فيه . ففي تلك اللحظات لم يكن للموت معنى ولا راحة . قال زميلي وهو رابض خلف الرشاش :

- تصور لقد عرفت الآن فقط كيف تولد الشجاعة ..
قلت له :

- عندما تتاح لنا فرصة اللقاء بالعدو وجها لوجه سنجد أننا أكثر شجاعة منه فنحن نقاتل على أرضنا والقضية قضيتنا ..
قال :

- والسلاح يعطي للإنسان ثقة أكبر بنفسه .
قلت : خاصة عندما تنطلق الرصاصات في اللحظات التي يجب أن تنطلق فيها .

كان زميلي سعيدا للغاية وكأنه اكتشف شيئا جديدا كان يختفيا في داخله . كان الضابط قائد المجموعة يحمل سلاحه على كتفه وقد دس يديه في جيب معطفه بعد أن أحكم إغلاق كل أزراره ، وأخذ في المرور على جنوده ليطمئن عليهم ، وكان كل منهم يصيح بحماس :

- تمام يا فندم .
كنا في يقظة تامة .. وأخيرا إتجه الضابط إلى أفراد الكمين المتقدم إلى الأمام وعندما إقترب من الجنود الثلاثة سمع أحدهم

يهمس قائلاً لزميله :

- هس .. أسكت .

دق النظر في الظلام فوجد الجنود الثلاثة وقد انبطحوا حول
أحد الخنادق المهجورة وصوب كل منهم سلاحه نحو الخندق ، رقد
إلى جوار أحدهم وهمس في أذنه :

- ماذا في الأمر؟؟

قال الجندي للضابط :

- تمكنا من محاصرة بعض الأعداء .. وهم راقدون الآن في
هذا الخندق خوفاً من بنادقنا .

قال الضابط متسائلاً :

- الآن؟؟

أجاب الجندي :

- منذ ساعة يا فندم ..

تشكك الضابط في الأمر .. أخرج مصباحه الكهربائي من
جيب معطفه ووجهه نحو الخندق ثم أضاءه مرة واحدة .. وكانت
مفاجأة .. فقد كان هناك أحد الكلاب في خلوه مع أنثاه ، أطلق
الضابط بعض الطلقات من رشاشه ، جرى الكلبان ، وانطلق
الجنود الثلاثة وهم يضحكون ويطلقون تعليقاتهم الساخرة .

كانت أشعة الصباح تكتسح أمامها جحافل الليل المظلمة ، لا بد
أن العدو قد خاب في مسعاه ، وتراجع أمام رصاصاتنا ، أخرج
زميلي قطعة من القماش القديم كان يحتفظ بها في جيب معطفه وراح
يمسح بها الرشاش ويزيل ما علق به من التراب وندى الليل ، ثم

أخذ يقبله في سعادة لا حدود لها ..

وبعد قليل كانت الشمس قد اتخذت مكانها في السماء وكان
علينا أن نستقبل يوما جديدا.



الخميس ٢٢ يناير ١٩٧٠

تصاعدت العمليات العسكرية على طول الجبهة وتزايد نشاط العدو في ضرب مواقعنا في الكتبية المجاورة لكتيبتنا .. كان الجنود في حالة قلق لصمت مدفعيتنا ولتركها الفرصة للمدفعية العدو وطيرانه يصولان ويجولان في المنطقة، ولم يتمالك أحد الجنود نفسه فذهب إلى ضابط الموقع في خندقه وقال له:

— لماذا لا نفتح النيران على العدو .. والهدف واضح جدا أمامنا؟...

قال الضابط :

— لأنه ليس لدينا أوامر ..

قال الجندي في غضب :

— يموت الناس كل يوم من طلقات العدو ولم تأتينا الأوامر بعد!!!...

ثم غاب لحظة وعاد يحمل (مخلته) ومعداته وقدمها للضابط وقال :

— هذه مهاتي فلتأخذوها وعندما تأتي الأوامر استدعوني وهم بالإصراف.

ولم يكن سلوك هذا الجندي خطأ فحسب ، بل كان أيضا

تصرفنا صبيانياً ضحكنا منه واعتبرناه طرفة تسرى عن النفس .
ولكن جو الكتيبة . ويخيل لي أن الجبهة كلها قد امتلأت بلغط
وكلام كثير ، كل من يذهب هنا أو هنالك فإنه يأتي بخبر عجيبة ..
جواسيس تمكنت المخابرات من كشفهم .. سائق عربة الماء يقول
أنه سمع من بعض الجنود أن جندياً أطلق تسعة طلقات على صدر
ضابط فقتله في الحال .. عربة إسعاف تحمل جندياً أفرغ في بطنه
ثلاثون طلقة من مدفعه الرشاش .

داخل الحنادق كان الحوار ثقيلاً لأن علامات الاستفهام كانت
دائماً تبرز ضخمة ، وأمام تساؤلاتنا عن الموقف وعن تزايد نشاط
العدو الجوي ، فوجئنا في يوم من الأيام بشيخ معمم ، سمين مكتر
يرتدي الجبة والقفطان ، كان ذلك عجيباً ، قابله ضابط الشؤون
الإدارية .. قال الشيخ :

– جئت لأعظ الكتيبة .. ولأعلم الجنود الطريق إلى الله ..
رحّب الضابط ، والتفت إليّ الوجوم المرسوم على وجوهنا :
ابتسم الشيخ ثم ضحك ، ولم يضحك أحد منا ...

عندما جاء الليل ، وتكاثفت في السماء السحب الداكنة التي
استطاعت أن تحجب القمر عنا ، أصبح على جنود الحراسة الليلية
أن يظلوا أكثر يقظة خوفاً من تسلل العدو إلى مواقعنا . داخل
الحندق ، كان الشيخ يجلس بيننا ، وكان يحيننا صوت جندي
الحراسة وهو يصيح قائلاً :

– قف ... من أنت ؟

–

– كلمة السر ؟ !

ثم ما يلبث أن ينادي أهلاً يا سيد .. أو سعيد أو ربما أي جندي آخر يعرفه . ودخل الخندق كان لابد من إشعال النار لعمل أكواب الشاي كالعادة لكن الشيخ إلتفت لي قائلاً :
- أريد الشاي ثقيلًا .

وعلى صليل الأكواب وطقطقة الحطب المحترق ورائحة الدخان ، كنا نتحدث حول صعوبة الموقف والاحتمالات الممكنة ، لكن الشيخ وهو يرتشف كوب الشاي قال وهو يمص شفثيه :
- جئت لأوثق الصلة بينكم وبين الله ...

قلنا : كيف؟؟

قال : بالصلاة يا أولاد .. الصلاة في أوقاتها تجعل الله يرضى عنا جميعاً وتجعل النصر قريباً بإذن الله .
قال واحد منا :

- لماذا لا نواجه العدو بضربات ساخنة .. ألا يرضى الله عنا عندئذ؟؟ ...

قال الشيخ في ضيق ظاهر :

- يا بني قم وصلّى لله .. قم وصلّ أولاً .
قال آخر :

- كيف يا سيدنا نترك المدافع ونجتمع للصلاة فتحصدنا إحدى قذائف العدو دفعة واحدة .
قال الشيخ في غضب :

- تحصدكم قذائف العدو لأن الله غير راض عنكم .
قفز جندي من بين الجالسين استشهد شقيقه في منطقة أخرى
من الجبهة وصاح في وجه الشيخ :
- يا سيدنا .. هل ترى أن كل شيء يسير في طريقه
الصحيح .. لقد جئت لتؤنّبنا وتحملنا نخاضل من هم أكبر منا .
- يا بني عيب .. فكر في نفسك فقط .
- لماذا لا تقل كلماتك هذه لأولي الأمر ..
- يا بني تكلم في حدود نفسك وأصلح أمرك وحدك .
ويبدو أن هذا الكلام لم يعجب زميلنا فقام واقفا وصاح بأعلى
صوته :

- نحن لسنا جناء يا سيدنا .. لتعلم أننا نقف للعدو بالمرصاد
ولا يفصل بيننا وبينه سوى كيلومتر واحد فقط ، نحن لا نخاف
العدو ، لكن قل لي هل رأيت تحصيناتنا ؟ .. هل رأيت الجندي
الذي تطالبه بالرجوع إلى الله وكأن حالته البائسة كفر قد تسبب فيه
لنفسه .. إن هذا الجندي يقاتل عدوه وهو على أرض جرداء لا
تحميه من الشظايا ولا من ضغط الهواء الناجم عن الانفجارات ،
وهو رغم ذلك لم يجبن ولم يخف . كانت المناقشة قد وصلت إلى
مرحلة الغليان .

وكنّا كلنا سعداء لكلام زميلنا .. لكن ذلك النقاش لم يستمر ،
فقد قطعتة صيحات جنود الحراسة على القناة وحول مرابض
الجنود تنادي بأعلى صوت :

- حرس سلاح ... حرس سلاح ...

تناول كل سلاحه وخوذته الحديدية .. وخرج من الخندق إلى
حفر الدفاع وكلمات الشيخ تلاحقهم مرتعشة خائفة :

- لا تنسوا الدعاء لله .. لا تنسوا.

لم يكن هناك شيء ، إلا أن جنود الحراسة كانوا قد اشتبهوا في
حركة خفيفة بين الحشائش البرية التي تنمو بغزارة بالقرب من
القناة . وعند الفجر ومع انسحاب سواد الليل أمام أشعة الشمس
وهي تأنهب لتطل على الجبهة .. أتجهنا إلى الملجأ لننام قليلا وكان
الشيخ ممددا في أحد الأركان وقد خلع عمامته وعلا شخيرته . قال
زميل لنا وهو يسحب البطانية فوق جسده :

- إنه بذل مجهودا كبيرا .. له الله .

إمتدت أشعة الشمس تلهب المنطقة ، كان اليوم يوم الجمعة ،
وكان كل ما يشغل بال الجنود هو تحصينات العدو القوية المواجهة
لمواقعنا مباشرة ، والتي لا تكف فيها حركة دباباته وعرباته المجنزرة
منذ ساعات الليل الأولى وحتى الصباح .. لعله ينوي شيئا ما ..
وعلى كل فإن التليفون الميداني ينقل حركته خطوة بخطوة ولحظة بعد
لحظة .

في هذا الوقت كان الشيخ يعد الجامع الذي بقي قائما وحده
وسط أخربة القرية المهدامة لصلاة الجمعة وعندما حان الموعد ،
جاء إلينا بوجه عابس غاضب ، وكنا نجلس وراء المدافع وفوهاتنا
متجهة نحو العدو في حالة الاستعداد القصوى . اقترب الشيخ من
الضابط وقال له محتجاً :

- ليس هناك جندي واحد ينوي الصلاة ؟

قال الضابط :

- وماذا أفعل؟؟

وأشار إلى المدفعية وقال :

- إنك ترى الموقف يا سيدنا .

قال الشيخ :

- فلنصل أولاً ...

لكن إشارة إطلاق نيران المدفعية كانت قد وصلت عبر أسلاك التليفون الميداني .

وعلا الضجيج وضاع صوت الشيخ تماماً ، فقد كانت هناك حركة كحركة النحل في خلاياه ، فالجنود وراء المدافع يتدافعون وهم يلغمونها القذائف ويتعثرون في الشيخ في ذهابهم وبجيتهم . فما كان منه إلا أن خلع جبته وعمامته وقذفها إلى الأرض وأخذ يحمل صناديق الذخيرة ويجري ليسلمها لجندي التعمير فتنتطلق القذائف كالرعد وتملأ المكان بالدخان الكثيف .

وفي مواقع العدو تتحول قذائفنا إلى خرائق لاهبة ، في تلك اللحظة يولد أناس جدد تشحنهم الشجاعة شحنات قوية ، ويخلق الموقف منهم بشراً آخرين ، وبين الدخان الكثيف والغبار المتطاير والمشبع برائحة البارود الثقيلة مسرعاً يحمل أحد صناديق الذخيرة والعرق يتصبب منه غزيراً... قلت له :

- قواك الله يا سيدنا...

فرد عليّ دون أن يتوقف :

- لعنة الله على الكافرين .. الله يقويكم .. الله يقويكم يا أولادي .

الأحد ٢٥ يناير ١٩٧٠

يوميا ، عشرات الطائرات ، مئات الغارات ، آلاف القنابل ،
إننا هنا خلف المدافع وداخل الخنادق يصقلنا الخوف ويعلمنا
الموت . إن وحشيتهم تشحننا ، تملاؤنا بالحقد عليهم ، كنت
أقول هذا لنفسي وجسدي المكثود متكور تحت البطانية ، كنت
أحاول النوم بعد يوم حافل بالموت والبطولة معا ، غطيت رأسي ،
استولت علي صور الأشلاء ويقع الدماء ، نظرات الوداع في عيون
الشهداء ، هرب النوم مني ، استحضرت صورة أمي وإخوتي ،
كنت أستنجد بهم ، كدت أشعر بالنوم يلفني .

ولكن فجأة صاح جندي الحرس خارج الخندق :

- قف من أنت ؟

رد القادم :

- صديق ... القائد يطلب الطبيب .

وجدت نفسي واقفا أبحث عن هذا الجندي في ظلام الليل ،
قلت له أنا جاهز ، اصطحبني ، تعثرنا في كتل الطين وحفر
الصواريخ ، وصلت إلي ملجأ القائد ، تحسنا الدرجات
الحرسانية ، نزلنا إليه ، لمبة جاز صغيرة أمامه ، تبينت ملامحه
المكدودة وعينه الحمراءوين كالدم ، وابتسامته المرهقة ، قال مشيرا

إلى جندي يقف في خجل بجوار الحائط :

- أرجو أن تحلّ له مشكلته .

قلت للجندي :

- نشرب الشاي عندي ونتحدث .

تحسّنا الطريق ، سقط زميلي في إحدى الحفر، تبلّلت ملابسه بالماء ، لم يبال ، شعرت بأنه بئس إلى أقصى حد ، لم أستطع أن أوّجل الحديث معه ، قلت له :

- أنا تحت أمرك .. هل أستطيع مساعدتك؟

ولكنه لم يجب ، وضعت يدي على كتفه ، قلت له تكلم قد نموت الآن ، لماذا يكتم الإنسان همومه في مكان مثل هذا ، ولكنه لم يقتنع ، سرنا في صمت ، تعثر مرة أخرى ، أمسكت به قبل أن يسقط ، اعتدل وقرر أن يتكلم ، قال في كلمات قصيرة أنه لم يستطع أن يمارس رجولته مع زوجته عندما كان في إجازته الميدانية ، وبأنه في غاية الحجل من اهتمام القائد والجنود بأمره ... ثم قال :

- وهل هذا وقته؟

هوّنت عليه الأمر ، وقلت له أننا يجب أن نعرف السبب في ذلك أولاً ، حصلت له على إجازة ، وأرسلته إلى طبيب في قريتنا ليجري له التحليلات اللازمة في المستشفى الذي يعمل فيه ... عاد بعد يومين يحمل النتيجة ، كل أعضائه سليمة ، المسألة مجرد قلق لا أكثر .

كنا في هذه الأيام .. نتلقّى الموت من كل جانب، من الأرض ،

ومن السماء .. ونحن لا نملك سوى أن نصمد ونقاتل حتى آخر
طلقة وآخر رجل ، كل يوم نودع أحد رفاقنا إلى قلب الأرض التي
رواها بدمه ، والقائد على الرغم من هذا يسألني عن حال زميلنا ...
أخبرته .. قال وكأنه يلقي أمرا عسكريا :
- فلنجرب .

وأمر له . اجازة .. قال له زملاؤه وهو يقفز إلى العربة :
- إياك أن نخذلنا ...

كانت المدفعية تدوي طول الوقت ، وطلقات الأسلحة الصغيرة
تظهر بين هذا الزئير وكأنها قرقزة لب ... اللهب يشتعل في عديد من
الأماكن وسحب الدخان تغطي مساحات كبيرة ... انحسرت
إحدى هذه السحابات ذات مرة لتظهر عربة الأجازات عائدة
وزميلنا يتزل منها مطأطأ الرأس وفهمنا جميعا أنه لا جديد ، قال
القائد :

- وما العمل ؟

قال « رقيب » أن العفاريت هي التي سحرت له ، وأن هناك
في قرينه شيخ يستطيع فك سحرها ، نظر إلى القائد ، حاولت أن
أتحدث ، دق جرس التليفون الميداني :
- استعدوا ...

الأيدي على الزناد .. الجنود خلف المدافع المحشوة بالقذائف .
- إضربوا ...

قال جندي الاستطلاع :

- دمرنا موقعا للعدو ودبابتين

خرجت طائرات العدو تضربنا بوحشية بالغة ، والتليفون يدق :
- إصمدوا...

طائرات العدو تكشف غاراتها .. تلقي علينا الموت بلا حساب ... التراب والبارود يسدان حلوقنا ، استشهد إثنان وجرح عدد كبير ، والتليفون مازال يدق :
- إصمدوا...

وصمدنا .. الجميع نسوا الحياة ، ونسوا الموت أيضا ، لكن الموقف كان بالغ الكرب ، وفجأة انشقت السماء عن طائرات الميج المصرية ودارت معركة عظيمة فوق رؤوسنا .. سقطت طائرة للعدو .. وطائرة أخرى على أرضنا .. أصيبت ثلاثة .. رقصنا .. لمحت زميلنا .. يقفز فرحا .. وهو يلوح للطائرات المصرية بقبضة يده...

- الله ينصركم ... الله ينصركم ...

استمرت المعركة .. طائرات العدو تهرب ، طائراتنا تمرق وراءها ثم تحوم عائدة ، مدفعيتنا تضرب بعنف أشد ، يسدل الظلام أستاره على الجبهة يتوقف القصف من الجانبين ، نسهر لنعتني بالجرحى وندفن الشهداء ونتحدث عما لاقاه الاسرائيليون في هذا اليوم ، لقد رجحت كفتنا وحققنا تفوقا خارقا وأثبتنا رجولة فذة ، نسينا مشكلة زميلنا ونسى هو أيضا مشكلته .

ولكن بعد أيام قليلة عادت عربة الأجازات لتفرغ حمولتها من الجنود الذين كانوا في أجازتهم الميدانية ، كان من بينهم زميلنا ، كانت في يده لفافة ، هرع إليه الجنود كأنما تذكره فجأة ، يعطيهم اللفافة ، يفتحونها ويتخاطفون القطائر الثلاث كالطيور الجارحة وهو

ينظر إليهم في سعادة .. الرقيب يرر شرهه في إتهام الفطير ويعلم
أن الفضل له فهو الذي طلب من الشيخ أن يفك السحر .. أحد
الجنود يلوح في وجهه بكلتا يديه ويقول بفم مليء :
- أيّ سحريا حضرة الرقيب .. إنه الطيران المصري الذي فك
سحرنا جميعا .

أبلغ القائد .. حضر من ملجئه .. أخذ قطعة من الفطير
وقضمها ومضغها بسعادة بالغة .. ثم التفت إلى زميلنا وقال له
بوجه مشرق :

- إن زوجتك تحسن صنع الفطير .



الاثنين ٢ فبراير ١٩٧٠

منذ مدة بعيدة والقيادة تحذّرنا من تسلل العدو إلى جبهتنا ، فالعدو يخطط منذ فترة طويلة لعملية عسكرية يقتحم بها مواقعنا مستهدفاً بذلك الدعاية وتحطيم الروح المعنوية لجنودنا .. كنا نعيش في تلك الأيام في يقظة تامة خاصة في الليل ... وكم من النكات والأشياء المضحكة قد حدثت .. ففي بعض الأحيان يسمع أحد الجنود صوت « خرفشة » بين الحشائش فنستعد جميعاً ونحاصر مصدر الصوت ، وبعد أن نضيق عليه الحصار يقفز كلب أو فأر ، فنضحك ونهكم على زميلنا ، ولكن هذا لم يقلل من يقظتنا أبداً ، وأيضاً لم يمنع حدوث بعض الأخطاء ، ففي هذه الليلة صاح جندي الاستطلاع على شاطئ القناة :

ـ قف من أنت؟؟

قال القادم :

ـ أنا الضابط (...) يا بني ... كله تمام؟؟

كان القادم يردد اسم الضابط المسؤول عن مراقبة المنطقة التي تدافع عنها كتيبتنا .. وبسبب غفلة هذا الجندي لم يسأله عن كلمة السر واكتفى بأن القادم اسمه « الضابط فلان » .

نزل القادم إلى الحندق وتظاهر بأنه يتفقد الموقع ثم فاجأ الجندي

وقتلـه بمنـجـره وقطـع أسـلاك التـليفون وكرـر المـحاوـلة فـي المـوقـع المـجاوـر...
صاح الجندي :

- قف من أنت؟؟

- أنا الضابط (...) يا بني... كلمة السر؟؟

- كلمة السر...

تلـعـثـم القـادـم قـلـيـلا ثـم قال :

- أقول لك أنا الضابط (...)

- لا أعرفك... كلمة السر فقط هي التي أعرفها .

ولـمـا لـم يـسـمـع الجـنـدي أـيـة إـجـابـة إـنـهـال عـلـى القـادـم بـطـلـقـات
مـتـوالـيـة مـن رـشـاشـه ، وـفـي ثـوـان كـانـت المـواقـع كـلـها قـد اشـتـعـلت ..
كـان هـنـاك عـدـد غـيـر قـلـيـل مـن أـمـثـالـه قـد تـسـلـلـوا .. وبعـد أن اسـتـشـهـد
أفـراد المـوقـع الأول أـصـبـح لـدى العـدو نـقـطـة عـبـور... ودارت مـعـركـة
رهيـة بـالسـلاح الأيـض والرـشـاشـات .. وشـعـرنا أن هـنـاك عـددا
كـبـيـرا مـن القـوارب تـعـبر القـنـاة وأن الـضـفـة الشـرقـيـة لـلقـنـاة تـعـج
بـالمـجـتـزرات ، إـذن فـالـعـدو يـنـفـذ خـطـته .

كـان المـوقـف بـالـغ الحـرج والصـعـوبـة ، فـقـد أـصـبـح جـنـودنا عـلـى
القـنـاة مـعـزولـين تـمـامـا عـن المـدفعـيـة فـي المـؤخـرة بسـبـب قـتل جـنـدي
الاسـتـطـلاع وتـقـطـيع أسـلاك التـليفون .. كـذلـك أـيـضـا أـصـبـحت
المـدفعـيـة غـيـر قـادـرة عـلـى القـصـف بـدون تـوجـيـهـات الاسـتـطـلاع ..
العـدو يـطـبـق خـطـته التـقـلـيـديـة فـي الـهـجـوم الكـاسـح... أـفـرادـه يـتـرايـدون
فـي سـرعة شـبـيـدة .. جـنـودنا يـقـاتـلون بـكـل خـلايا أجـسادـهم .. كـان
لـا بـد أن يـحـدث شـيـء قـبـل عـبـور المـجـتـزرات الـتي أـعـدهـا العـدو .. كـان

لابد لمدفعيتنا أن تتدخل لتحسم القتال .. قائد كتيبتنا يأمر أحد ضباطه الشبان أن يحمل جهاز اللاسلكي ويقتحم القتال الدائر على شاطئ القناة ويقول له :

- تعطيني إشارة الضرب أو تموت هناك .. الضابط يشق طريقه مسرعا بين الرصاص المهاطل والشظايا المتطايرة ثم يتحصن في أحد الخنادق على شاطئ القناة ويبدأ في إرسال إشاراته .. المدافع تزار وتهز الليل هزا وتغرق قوارب العدو في القناة ، ثم تشعل النار في مجنزرات العدو التي كانت متربصة خلف الساتر الرملي على الضفة الشرقية .. الاسرائيليون يلقون بأنفسهم في مياه القناة ، يحاولون العودة إلى مواقعهم ، تبتلع القناة الكثير منهم ، جنودنا يقومون بعمليات تطهير سريعة .. يسطع الفجر وتنفقد شهداءنا ... إنهم أربعة ، جندي الاستطلاع واثنان آخران وجندي رابع ، كان في صدره خنجر ، ولكنه استشهد وهو قابض على رقبة جندي إسرائيلي حتى الموت ، فصلناهما وأرحناه بجوار زملائه الثلاثة ، وكان النهار قد بدأ يطل على الجبهة ، العدو انسحب تماما ولم يعد له أثر ، توقفت المدفعية عن القصف ، الشمس تغمر الأشياء بنورها الساطع ، قوارب ممزقة في القناة ، آليات العدو يتصاعد منها الدخان على الضفة الأخرى للقناة .

جاءت حراسة النهار تستلم منا الموقع .. سلمناه لهم ورؤوسنا مرفوعة ، شدوا على أيدينا وقالوا :

- صباح الخير يا رجال .

الجمعة ٦ فبراير ١٩٧٠

أكتب هذه اليومية في قريتي...

لقد عدت تَوّاً من الجبهة لأقضي أجازتي الميدانية بين أهلي وأصدقائي كمعادي منذ أن جندت .. وكان فرحي ببلقائهم يزداد كلما اقتربت المسافة وأنا في الطريق إليهم .. ولكن في هذه المرة قد جئت إليهم بقلب مثقل بالهم والحزن .. فإزالت دماء ذلك الجندي تخضب ملابسي العسكرية ومازالت ملامحه الريفية البائسة تلح عليّ مخيلتي رغم الجرح النازف في رأسه ، لقد ضمدت كثيرا من الجرحى وحملت العديد من الشهداء إلى مثواهم الأخير ، لكن لم أتأثر بهذا القدر العميق إلا هذه المرة .

كنت أجلس إلى جوار نافذة القطار ، فهي عادي التي أصر عليها كلما حصلت على أجازتي الميدانية ... أحب الجلوس إلى النافذة حتى أمتع بصري بخضرة الريف وحتى يأنس قلبي بمنظر القرى الآمنة وهي تتلاصق مع سرعة القطار فأين منها تلك القرى البائسة على خط النار وما حدث فيها من دمار وحشية على يد عدونا الذي لا يعرف الرحمة .. وفي هذه المرة كنت مشتتاً في أفكاري ، تذكّرني أشياء كثيرة تمر أمام نافذة القطار المسرع بما يدور في حياتنا من أحداث فتختلط معها مشاعري وأحياناً كثيرة تسقط دموعي دون أن أدري ، وفجأة سقطت قطرة من الدم على يدي

التي كنت متكئا بها على نافذة القطار.. ولم ألق بالا للأمر أول مرة، فسحّتها وواصلت استغراقي واستمتاعي بخواطري التي تنداعى بسرعة تنافس سرعة القطار.. ولكن سقوط قطرة ثانية حفزني لأن أحاول استطلاع مصدرها، فأخرجت رأسي من النافذة ونظرت إلى أعلى فوجدت خيطا من الدماء ينساب من فوق سقف عربة القطار التي تطل من فوقها أطراف حذاء عسكري، وأدركت الأمر بسرعة، فهناك جندي مصاب فوق القطار، أصابني الذعر وصحت بمن حولي أن يطلبوا من المسؤولين عن القطار إيقافه بأسرع ما يمكن لاستجلاء الأمر، وحضر المسؤولون بسرعة وعانوا الدماء والحذاء العسكري المثل من فوق عربة القطار، ولكنهم أصرّوا أنه من المستحيل إيقاف القطار إلا في أقرب محطة وإلا حدثت كارثة للقطار القادم على نفس الخط علاوة على قطارنا أيضاً .

وأجمع الناس على أن الجندي الموجود على سقف العربة قد ارتطمت رأسه بسقف أحد القناطر التي يمر تحتها القطار، وأنه غالبا قد مات. وظل اللفظ على أشده حتى توقف القطار، فقلت للمسؤولين عن القطار أنني طبيب وطلبت منهم أن يسمحوا لي بالصعود معهم إلى سقف العربة لعلمي أستطيع عمل شيء إذا ما كان هناك أمل .

كانت رأس الجندي مهشمة إثر اصطدام قوي مع جسم صلب .. وكان قد فارق الحياة تماماً ولم يكن هناك على سطح القطار كله غيره .. كانت ملابسه كلها غارقة في الدماء .. حملناه إلى المحطة وسلمناه إلى الشرطة العسكرية التي بدأت في جرد محتويات ملابسه في محاولة للتعرف على شخصيته وأخذ أحد جنود

الشرطة العسكرية يسجل هذه المحتويات - منديل - علبة شجائرها
ثلاث سجائر - سبعة عشر قرشاً - بطاقة عسكرية .

بطاقة عسكرية رقم ...

كتيبة رقم ...

الاسم ...

بطاقة شخصية رقم .

المهنة : فلاح .

محتويات أخرى : منديل - ثلاثة سجائر - سبعة عشر قرشاً
- ختم - بريقة .

وعندما شاهدت البرقية في يد جندي الشرطة العسكرية طلبت
منه أن يطلعني عليها وقرأت :

« إ حضر حالا ... والدك توفى » .

مددت يدي بالورقة للجندي وذهبت ألتي نظرة على ذلك
الغارق في دمائه وصفر القطار ، وعدت إلى مقعدي أسمع حديث
الناس عما حدث ولا أجد معنى لأي كلمة تقال ، ولم أعد أرى رغم
عيني المفتوحين لا الأشجار ولا البيوت التي كانت تطل عليها نافذة
القطار .. فقد كان حجم الحزن أكبر من أي شيء ، وتركز في
خاطري سؤال ... أترى هذا الوطن القاسي على أبناءه المخلصين ..
أيمكن لهذا الوطن أن ينهض ؟ إن الأمر كله مرهون بقليل من الرحمة
يمكن أن تنقذ عالماً بأكمله .

فيتنام الصغرى .. كيف الحال عندكم ؟ وتكون إجابتنا ، إننا نقاتل في الليل والنهار ، نحن نعيش حياة قتالية حقيقية ، فالمنطقة بين «القنطرة» و«الكاب» ملتهبة تعيش على دوي الانفجارات ، وتلّون سماءها سحب الدخان السوداء ، الحشائش التي تنمو بغزارة في المنطقة أطرافها دائماً محترقة بفعل قنابل النابالم ، بحيرات كثيرة صنعها قنابل الطائرات ، أصبحت عادة يلحظها الجميع ، عندما تتحرك إحدى عربات الجيب في وضوح النهار ، فإنك تجد قائدها وقد فتح باب العربة وتعلقت عيناه بالفضاء المحيط حتى إذا لمح إحدى الطائرات المعادية اتجه بالعربة داخل الحشائش مختفياً ، حتى الجنود يحذرون المشي في تجمعات كبيرة ويفهمون كيف يشب الجندي في مكانه دون حركة أو يخنفي تحت إحدى الأشجار حتى تنهي غارة الطيران المعادي

رغم ذلك فقد عبرت إحدى وحداتنا المقاتلة قناة السويس الى الضفة الشرقية في منتصف الليل .. اشرابت فوهات المدافع واشرابت معها رؤوس المقاتلين تربص بالعدو حتى الصباح ، كنا في الضفة الغربية للقناة على أتم استعداد للاشتباك بالمدفعية لحماية زملائنا الذين عبروا القناة ، وفجأة أطلقت قواتنا في سيناء القذائف الصاروخية وطلقات المدافع الرشاشة والبنادق الآلية كسيل غير

منقطع ، الدم يغلي في عروقنا نكاد نظير ونقفز في الفضاء لنلحق بهم... رقعة اللهب تزداد والدخان الكثيف يتصاعد بكثرة .. أسلاك التليفون الميداني لا تكف عن الصراخ ... دمرت دبابة .. اثنتان .. خمس دبابات تم تدميرها بأفرادها ، العدو يطلب النجدة ، طائرات «الميراج» تصل بعد ثوان وتصب على زملائنا الذين عبروا جحيمًا من النيران بطلقات «الفيكرز» ، وكانت مفاجأة حين عادت القوة كاملة من بين اللهب دون أن يصاب أحد منهم بجراح ، بالأحضان والقبلات تقابلنا ، وقالوا نريد أن نأكل ، أحضرنا لهم الحبز والجبن والشاي ، وجلسنا نتحدث عن تلك اللحظات الرائعة في حياة المقاتل وأسطورة الجندي الاسرائيلي الذي لا يقهر ، وفجأة تساقطت قذائف «الهاون» الاسرائيلية بالقرب منا . سقط البعض ميتًا وأصيب البعض الآخر ، كنت وحدي الذي يعرف الاسعافات ، جريت حاملا النعالات وحقيبة الاسعاف ، قلبت الجثث الملقاة ، ضمدت جراح البعض ، كان هناك جندي ذا إصابات بالغة ، لم أستطع تضميد جراحه لأنه قد أصيب بتهتك في الحوض وكسر عميق في فخذه أيضاً ، وعندما هممنا بالتحرك بالعربة إلى المستشفى الميداني ، كان بعض الجنود يتجمعون حول أحد النقباء وقد راح جسده يرتعش بشدة اصططحناه معنا .

الاثنين ١٨ يونيو ١٩٧٠

لم نجد صعوبة في إخراج جثتي الشهيد اللذين دفنا تحت قنابل الطائرات المعادية ، الجشتان ممزقتان لكننا لفنا كل جثة داخل بطانية ماعدا الحذاء فقد كان يطل من فتحة البطانية في استرخاء تام ، وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت الدماء الحمراء تقتحم لون البطانية الرمادي وتصبغ بحمرتها عيون الزملاء ، شعرت بالحزن يطل ثقيلًا من كل المآقي ، تسمّرنا حول الجسدين الممددين على الأرض دون أن يقدر أحد منا أن يحرك لسانه بكلمة واحدة . أو أن يرفع بصره عنهما ، كانا صديقين ، عندما كنا نحب أن نلهو كنا نثير معها الشغب ونضحك كثيرا من تعليقاتها ونكاتهما التي لا تنفد ، بعد كل اشتباك كانا يحولان كل ما حدث إلى فكاهات لاذعة ، كانت لديهما قدرة غريبة على ذلك ، بل إنه كان يكفي أن نرى أحدهما قادما من بعيد حتى نغرق في الضحك ، وفي الليل كان يكفي أن نسمع صوتيهما حتى يحدث نفس الشيء ، من يراهما كان يجزم بأنهما ولدا معا رغم أن أحدهما كان مسلما والآخر مسيحيا ، وعلى الرغم أنهما لم يلتقيا إلا في الخنلق ومنذ عام واحد ، لم نكن نعرف عن حياتهما الكثير سوى أن أحدهما كان يحمل دبلوم تجارة والآخر دبلوم معلمين ، وكان كل منهما يعول أسرته بعد موت والده ، وربما كان هذا هو الذي يوجد بينهما ، ورغم أن حياتهما كانت

مفكرات جندى مصرى ١٠٩٥

صعبه إلا أنها كانا أكثرنا مرحا وكأنهما لم يعرفا الألم قط ..
نظرت إلى قطع الطين الكبيرة الملتصقة بحداءيهما البارزين من
تحت البطانية.. تذكرت ثباتها وراء المدفع، كانا قد ألقياه قذيفة،
وعندما طلب منها قائد الموقع أن يخفيا في الخندق قبل أن
تصل الطائرات .. أصرا على أن تنطلق القذيفة أولا ، ولكن
الطائرات المعادية كانت أسرع .. قال أحدهما وكأنه يعزينا ..
- كانا بطلين .. على الأقل لم يفرا مثلاً فر جندي التعمير في
الكتيبة المجاورة .

لم تجد هذه الكلمات شيئاً ، وكان العالم قد توقف ، الكل غارق
في الحزن ، حتى الدموع تجمدت ، وفجأة استدار أحد الجنود
وقذف كلباً بحجر ، وكان الكلب ينبش في أكوام التراب والطين
الضخمه التي صتعتها القنابل ، عاد الكلب مرة ثانية ليتشم نفس
المكان ، تعجب الجندي وقذفه بحجر آخر ، قلت في نفسي لعل
حاسة الشم القويه لدى الكلاب تنبئ هذا الكلب عن وجود
شيء ما تحت أكوام الطين هذه ، أمرت أحد الجنود أن يكشف
عنه في نفس الموضع ، وأخذت أرقبه وهو يقذف بالطين عالياً إلى
أن إصطدم جاروفه بجسم حديدي إتضح لنا فيما بعد أنه خوزة
جندي آخر مدفون تحت التراب ، ولكن يبدو أن ذلك قد حدث منذ
ثلاثة أسابيع على الأقل فحالة الجثة تؤكد ذلك ، لا أحد يستطيع
التعرف عليه ، فليست هناك بعد هذه المدة ملامح ، مددت يدي
في جيب سترته وأخرجت بطاقته العسكرية وقرأت اسمه بصوت
عالٍ لعل أحداً يعرفه .. وفجأة صاح أحد زملائنا :

- إنه من الكتيبة المجاورة لنا .. إنه جندي التعمير ..

وفي ملفات الأوراق العسكرية ، كان قد تم التبليغ عن هرب هذا الجندي من الميدان وكنا نحن نسخر من زملائه ونعابريهم به اذا ما أخطأوا أهدافهم عند الاشتباكات ، كانت في يده قبضة من طين الوطن ، وبحوار اليد الأخرى قذيفة فارغة . أخيرا انفك أسردموعنا وسالت تجرف الاحزان من قلوبنا ، رفع كل منا رأسه ، وكان الأوز البري يخلق رغم كل شيء أبيض ناصعاً في عتمة الغسق كقلوب الجنود في تلك اللحظة ، فقد أضاءتها قصة زميلنا جندي التعمير ، قضت على ما علق بها ، وهتف بداخلي هاتف :

.. يبدو أننا أكبر مما نظن ..

تم اعداد العربيه .. تمتد الشهداء الثلاثة جنباً إلى جنب ، وفي الليل تحركنا إلى مقابر الشهداء لتم اجراءات الدفن في الظلام حتى لا تفاجئنا طائرات العدو ، في دقائق انتهى كل شيء ، وقبل أن نقفل عائدین تحسسنا شجرة في سواد الليل أخذنا منها ثلاثة أغصان خضراء ووضعناها على قبر كل منهم وأدينا لهم التحية العسكرية .



الأربعاء ٥ أغسطس ١٩٧٠

في الجبهة يولد الانسان الجديد ، يولد بين اللهب ، وأمام
رصاص البنادق الآلية، وشظايا الدانات والقنابل ، وتحت
طائرات العدو المغيرة ، هنا يجب على الإنسان أن يتخذ موقفا
واضحاً محددا ، إما أن يخاف ويحزن ، وإما أن يقف في شموخ، دون
أن تهتز منه شعرة واحدة ، وفي الجبهة شاهدت ميلاده مع
الاشتباكات اليومية بيننا وبين العدو ، هذا الانسان الجديد الذي
علمه الرصاص كيف يكون الوطن هو حبه الأكبر وكيف يحمل في
قلبه مشاكله وهمومه ، وما هو الحق ، وكيف يكون الواجب .

إن اللحظة التي يعيشها الإنسان بين اللهب وتحت الخطر هي
التي تخلقه من جديد ، هي التي تجعله يلقي بجيائه الرتيبة المرهقة لينام
في الخنادق الترابية ويجوب ظلمة الليل الخالكة ، ويعود أذنيه على
دوى المدفعية وهدير الدبابات ، ورغم الظلمة فإنه هنا يرى مصر
أكثر من الجالسين في مقاهيها ، هذا الصمت أحيانا ثم ضجيج
الاشتباكات أحيانا أخرى ، الطلقات المضئنة في الليل ، السلاح
والذخيرة والحوذة الحديدية .. ماذا بعد ؟ .. انها لحظة رائعة تلك
التي يحس بها الجندي وسلاحه على كتفه وعيونه تحترق الليل ، انه
حارس شجاع يحمل مصر كلها في قلبه ويحس بها مع كل خفقة ..
إن هذه الحياة على الجبهة هي التي اهتمت قائد المدفع الذي

بترت صواريخ الطائرات المعادية ذراعيه ، فثبت قدميه على المدفع وأسقط إحداها. إنني أذكره جيدا ، وأذكر أيضا ذلك الجندي الذي كان يحمي مؤخرة العبور ورفض أن ينجو بحياته بعد أن اكتشف العدو خط انسحاب زملائه وأصر على حماية ظهورهم واستشهد في قاع القناة ..

ماذا بعد أن يتزف الدم منا .. علينا أن نواصل القتال .. هل يموت الانسان مرتين ، إنها مرة واحدة وميتة واحدة ، فمع تصاعد الموقف يتزايد الرجال الشجعان وتشتد حماسهم للقتال . هذه المجموعة من الرجال التي عبرت القناة إلى الضفة الشرقية كانوا يقبلون الأرض ، ظلوا أكثر من خمس ساعات يتحرشون بالعدو حتى فوجئوا بطابور من المدرعات المعادية ، ورغم أن اسلحتهم وذخيرتهم كانت بسيطة لم يترددوا ، اشتبكوا مع تلك المدرعات ودمروا منها دبابتين وعربتين نصف جزير وعربة جيب .. كانوا يصيحون .

الله أكبر .. الله أكبر ..

وبين النار المشتعلة كانت طائرات العدو تبحث عنهم ، إلا أنهم عادوا جميعا بلا جريح واحد وهم يقبلون بعضهم بعضا .. ويقولون :

— لو كانت هناك ذخيرة أخرى .. لأبدنا طابور المدرعات عن آخره هنا وراء كل خير عسكري قصة لإنسان ولد من جديد على الجبهة ، إنسان يعرف كيف يحب وطنه ، ويعرف معنى الواجب ..

ويدرك اللحظة التي يقرر فيها شيئاً للوطن، ولذلك فإنساننا الجديد
لا يهمه الرصاص ولا ما تردده إذاعات العدو.
إن المقاتل على الجبهة يثق بأن حل مشاكل الوطن الداخلية
والصراع ضد الاستعمار هو بالمزيد من القتال.



الجمعة ٧ أغسطس ١٩٧٠

منذ أن وطأت قدمي أرض الميدان وحقيقتي التي تلازمي دائماً محشوة بالورق والخطابات الجديدة ، كنت أحب اللون الأزرق الفاتح ، وكنت أستريح وأنا أكتب عليه رسائلي ، فهو يذكّرني دائماً بصفاء السماء، التي كان اللهب والغبار الأسود خلال الاشتباكات الدامية مع العدو، يصبغها بلون آخر يختلف معه الرؤية لكل الأشياء .

كانت رسائل الميدان لها شكل خاص في حياتي ، كنت كلما ضقت ذرعاً، وكلما أكلني الحنين والشوق للأهل والأصدقاء ، تناولت الورق والقلم وأخذت من داخل الملجأ أو الخندق والشمس تلفحني بهجيرها أكتب رسائلي .

أحياناً أخرى كنت أجد متعة شديدة ومؤانسة حقيقية وأنا أعيد قراءة بعض الخطابات التي كانت تصلني من الأهل والأصدقاء ، كان القصف مستمراً والانفجارات لا تكف عن الدوى ، وكل الغبار والدخان تحيل وجه السماء الأزرق إلى صفحة متسخة ومغبرة، كنت حينئذ أتساءل .. متى يعود وجه السماء إلى زرقته الصافية لتحنو من جديد على كل شيء في بلدنا المزهق الجريح ، وتعود بي الذاكرة إلى ذلك اليوم الذي حملني فيه القطار الحربي أنا ومهاتي متجهاً إلى الجبهة ، وإلى تلك الرعشة التي هزت جسدي

وخفق لها قلبي هلعاً من آثار القنابل والحرائق والدمار الهائل، الذي كانت عربتنا العسكرية تحاول بصعوبة شق طريقها من خلاله، حتى تصل بنا إلى مواقعنا الحربية المواجهة لخطوط العدو مباشرة ، رأيت الحقيقة في لحظات سريعة ، العلم الاسرائيلي يرفرف على أرضنا .. تلك الليلة كان طولها ألف عام من حساب الزمن .. سقطت مني تلك الحماسة المتدفقة ، وحضرني كلمات كنت قد قرأتها للشاعر السوفي إبليا سيلفنسكي ...

فلتصط الكلمات

وليتكلم البارود

البارود وحده

وكان علي أن أقطع الطريق على أحلامي الرومانسية وهواجسي الأدبية ، وأن أحتل موقعي في الحندق وأعد سلاحى وأحشوه بالذخيرة ، وأن تكون رسائلي هي جزء من رصاصات بندقيتي .. كانت الجبهة مثل الأتون تزداد يوماً بعد يوم في السخونة والتوتر ، والحياة يتدفق فيها الدم الساخن ، ورغم ذلك تعلمنا كيف نجد الحنان والبسمة .. مع حرارة المعارك كانت الرسائل هي الأخرى ساخنة وملتهبة .

جبهة القتال في ١٥ أبريل ١٩٦٩

والداي العزيزان

نحية ساخنة سخونة الجبهة ، وأرجو أن تطمئنا علي وأن نكوننا راضيين عما قد يحدث لي ، لا أحب أن يتأبكا القلق علي ، فالآية الكريمة تقول (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) .

في الاشتباكات الأخيرة بالمدفعية الثقيلة دمرنا للعدو موقعا من
مواقعه الحصينة المرصوفة قبالتنا على الضفة الشرقية لقناة
السويس ، وتعجبوا مثلما تعجبنا نحن هنا لحسائرتنا ، فقد كانت
بالتام والكمال حماراً كان الفلاحون قد تركوه يرعى وكلبين قتلها
شظايا القذائف الطائشة، كما تهدمت بعض المنازل الطينية، والتي
قاومت من قبل عدوان يونيو، خسائرتنا في الأرواح قليلة.. اطمئنا
عليّ.

ابنكم المقاتل بالجبهة

وكانت فرحتي لا تقدر عندما فاجأني مندوب البريد بالوحدة
وهو يقذف إلى بمجموعة من الخطابات أرسلت إليّ في وقت
واحد .. فضضتها واتخذت مكانا في أحد الملاجئ القريبة وأخذت
أقرأها واحد واحد

المنصورة في ٥ مايو ١٩٦٩

صديقنا العزيز

وصلتني كلماتك الحادة والقاطعة مثل طلقات الرصاص على
الجبهة عندكم كما أتصور .. لا أملك شيئا أستطيع أن أحدثك عنه
فأنت تعيش حيث توجد الحياة .. وحيث يكون للزمن قيمة ..
تحياتي وأرجو أن تكون في أحسن حال ..
تحياتي للأخوة الجنود رفاق الميدان ورفاق السلاح .

صديقك المخلص

طويت الرسالة في عناية تامة ودسستها في جيب سترتي العسكرية وأنا أحس بالزهو ، ولكني عندما فضضت الرسالة التالية تعجبت .. ماذا يكون قد حدث حقيقة .

القاهرة في ١٢ مايو ١٩٦٩

عزيزنا

أرجو أن تصلك هذه الرسالة وأنت حي ترزق ، الآن كل الأسرة وأنا والأصدقاء لا هم لهم غير تقصّي أنباتك ممن هم معك أحيانا ومن البلاغات العسكرية أحيانا أخرى .. إذا كنت على قيد الحياة فارسل إلينا أي خطاب حتي نطمئن ..

أخوك

لم أتمالك دموعي وهي تزحف ساخنة على وجهي حينما لمحت هذا الخط المتواضع على ظهر الرسالة الثالثة .. انه خط والدي .. وماذا يا ترى يتصورني الآن وماذا يفكر بشأني .. وأخذت أقرأ .

المنصورة في ٢٠ مايو ١٩٦٩

ولدنا العزيز

كيف حالك .. لماذا لم تحضر في موعد اجازتك الميدانية ، لقد لعب القار في عينا ونحن لا نعرف عنك شيئا الآن .. الجرائد والراديو تذيع كل شيء عن الاشتباكات والحرب عندكم ، أرجو أن ترسل لنا بأسرع ما يمكن ما يطمئنا عليك وخاصة الوالدة التي لا تحب لها دمة منذ سفرك .

والدك

كان قد مضى أكثر من عشرة أيام بعد أن طويت هذه الرسالة وأرسلتها بالبريد الميداني .. وكان الهدوء قد بدأ يسود الجبهة بشكل ملحوظ . وتوقف العدو عن اشتباكاتهِ الليلية كما توقف عن الاستطلاع بطائراته أثناء النهار . لقد كانت فترة لائتقاط الأنفاس ، وذات ليلة طال بي السير وكنت قد أعددت على الموقد، الذي كان قد صنعه زميلي ناظر إحدى المدارس الابتدائية بالصعيد، من طليقة فارغة لإحدى القذائف ومن علب الصفيح الفارغة، كنت قد أعددت كوباً من الشاي، وقررت وأنا أرتشف الشاي الساخن أن أكتب على مهل هذه الرسالة.

الجبهة في ١٠ يونيو ١٩٦٩

الأصدقاء الأعزاء

تحيةقلبية حارة

لم أكن أنوي أن أكتب اليكم الآن لولا حصول زميلي حامل هذه الرسالة على إجازته الميدانية والسبب هو أن الحياة على الجبهة قد أصبحت مملة بعض الشيء ، فنذ أسبوع تقريبا والجو هادئ حتى الأسلحة الصغيرة توقفت عن الاشتباكات مع العدو ، الجنود يعيشون في ملل عجيب، لا يجدون ما يمكن أن يشغلوا به أوقاتهم ، لذلك فكثيرا ما يتجولون في أراضي الفلاحين المزروعة بالبطيخ ليقتطفوا الثمار قبل أن تنضج، كما يقتطفون ثمار الرمان وهي خضراء صغيرة ، ويجلس كل منهم بعد الأيام عدا حتى يتحرك الزمن ويحين موعد إجازته الميدانية . وقد كاد الملل أن يسيطر على أيضا لولا مجموعة الكتب التي أقرأها الآن حول قضية العدوان سنة ١٩٥٦

وعدوان ١٩٦٧ .. وحقيقة لم أجد فارقا كبيرا بين الحرين سوى أن الشعب في عدوان 1956 أقبل كالسيل للمقاومة الشعبية في بورسعيد وأن العمال كانوا يعملون لمواجهة أعباء الجبهة . وفي عدوان ١٩٦٧ فإن الملل مثل الكابوس دخل كل بيت وتربع فيه وهو كثيرا ما يزورنا في مواقعنا العسكرية .



الجمعة ١٤ أغسطس ١٩٧٠

كانت فترات الصمت على الجبهة تفتح أمامنا أبواباً أخرى نقضي الوقت فيها .. كنت ارتدي معطفي العسكري وأحكم أزراره وأتجول بأطراف بحيرة المتزلة ، وأحياناً بين حطام البيوت المهدمة والمحترقة ، لكن الصمت إنفجر وما لبثت الجبهة أن اشتعلت بشدة ، وعادت السخونة إلى حياتنا من جديد ، وعاد لكل شيء قيمته مرةً أخرى الآن جاءني رسالة .

وانتابني شعور بالذنب .. كنت أود أن لا يفكر فيّ أحد .. كانت تتنابني لحظات الاشتباك لإحساسات طليقة أنني وحدي أتحمل مصيري أمام الحرب ومخاطرها ، لكن هذه الرسائل كانت كالحجر الثقيل على صدري ، جعلتني في كل خطوة أخطوها يحضرنني فيلم كامل عن الأهل والأحباب والأصدقاء ، ويجعل لكل خطوة أخطوها ألف حساب .

حاولت أن أكتب بعد الظهيرة ، لكن اشتباك المدفعية الدائر منذ الصباح بصفة متقطعة قد أسفر عن إصابة بعض الجنود ، فبتنصيد جراحهم وقلت لنفسى على أن أوجل الكتابة حتى قدوم الليل .. وعلى ضوء أقراص الوقود الجاف أخذت أكتب وكنت قد استرحت قليلاً ..

الجبهة في ٣٠/٥/١٩٦٩

والسدي

الحقيقة . . ان الحياة هنا صعبة للغاية ، وتمنعني هذه الصعوبة من الانتظام في الكتابة إليكم ، فالعدو يكشف اشتباكاتة هذه الأيام ، وقد كنت اتفقت معكم على أن ما يمكن أن يحدث لي سوف يكون قضاء الله ومشيتة ، ويريجني أن تعلموا جميعاً أنني في غاية السعادة حيث أشعر بأني أؤدي واجبي نحو وطني ونحوكم ، أرجو يا والدي ألا يكون عطفكم عليّ يضعفني فأنا أتألم وأتعذب لأنني أحس أنكم دائماً قلقون علي ، وأصدقكم القول أن العدو لا يحرك شعرة واحدة في رأسي ، ولكن ما يؤلمني ويقشعر له جسدي ، وتسيل الدموع حارة وملتهبة من أجله هو خوفكم عليّ وقلقكم من أجلي .

أرجو أن استمد منكم القوة

ابنكم المقاتل بالجبهة

المنصورة في ١ أغسطس ١٩٦٩

أخي المقاتل على الجبهة

أرجو أن تكتب خطاباً لتطمئن والدتك لأنني كثيراً ما أراها حزينة عليك يا أخي . . فاملاً أنت قلبها بالشجاعة ، أرجو يا أخي عندما تذهب لتستريح أن تجيب علي هذه الأسئلة .

١ - لماذا تتزايد غارات اسرائيل عما كانت من قبل

٢ - تقول اسرائيل أن ٢,٥ مليون اسرائيلي سيهزمون دائماً

الـ ٢٠٠ مليون عربي هل هذا صحيح يا أخي ؟
· أخوك الصغير
السنة الأولى إعدادية

ووجدت متعة أن أتناول الأوراق وأن أكتب إلى أخي ردّاً على
تساؤلاته .

الجبهة في ٥ أغسطس ١٩٦٩
أخي الصغير ..

اختلست بعض الوقت لأكتب لك وأرجو أن تقبل أسفي
لأن الورقة التي أكتب لك عليها ورقة متسخة وقديمة فقد وجدتها في
كراسة تلميذ هاجر من القرية التي تحتل مواقعنا اطلالها، وعندما
ستكبر مثلي وتكون رجلاً يمكن أن يستفيد منه الوطن، ستعرف أن
الفترة التي نعيشها الآن هي أحسن الفترات تاريخياً ومصرياً ،
فنحن شعب فقير يشتري بنقوده القليلة أسلحة ليحارب بها إسرائيل،
قاعدة الاستعمار الأمريكي المتوحشة في وطننا العربي ، ولكي
نحارب الاستعمار ونهزمه يجب إلى جانب حمل السلاح أن نبني
الإشتركية في بلدنا ، وبناء الاشتراكية يحتاج إلى رجال يفكرون
من صغرهم من أجل مصر، همومهم هي الوطن وهي العدوان
والتخلف والفقر ، لا بد أن تقرأ كثيراً عن تاريخ الشعب المصري
وكفاحه حتى تكون لك يد في بناء مستقبله .

أما عن الإشتباكات مع العدو ، فقد أصبحت غالباً تقع
بالليل ، فعندما يتصف الليل يطلق العدو قذائفه المضيفة كالشمس

ثم تنهال قذائفه المتفجرة على مواقعنا من مدفعيته ، وهذه الأيام تحدث عندنا خسائر قليلة لأننا كما قلت لك في إجازتي الماضية نختبئ في الحنادق ، وتركز خسائرننا في الكلاب والحيوانات الأليفة والأشجار التي تساقط .

إن الأبطال الحقيقيون هم الذين يحملون السلاح الآن ويتحولون على طول قناة السويس ليصدوا العدوان عن الوطن، وهم الجنود وراء مدافعهم يصبون كل يوم وابلا من القنابل والقذائف، التي تشعل الحرائق اللاهبة في مواقعهم عند كل اشتباك ، وهم أيضا هؤلاء الأبطال الصغار الذين كتبوا على الجدران الطينية المهدامة، في القرى المهجورة على خط القناة، كتابات كثيرة ليقولوا (النصر لنا - القناة لنا - يسقط الاستعمار الأمريكي).. وعندما أقرأ هذه الكلمات ينشرح صدري لأن الصغار في مثل سنك يفهمون المعركة أيضا.

تحيات قتالية ساخنة
أخوك المقاتل

عودتني تجربتي في الميدان بين الجرحى والمصابين والشهداء ... أن أنظر للحياة بشكل آخر .. فالحزن يجب أن يكون عابرا ويجب أن يفكر الإنسان بشكل آخر أمام تلك الأحداث فتتحول عواطف الحزن عنده إلى طوفان من الحقد على العدو ومحيط شاسع من الحب الصافي للوطن .

الجبهة في ٦ أغسطس ١٩٦٩

عزيزي

تسألني في خطابك باستغراب عن الجرحى والشهداء وكيف لا يشيب شعر رأسي لمنظر الأشلاء والقتلى ، ولا أكتمك أن قلبي مازال بخير ولم يتحول إلى حجر أصم بعد ، ولكن الحرب يا صديقي تفرض علينا حقيقة جديدة ، وهي عندما تسقط الأشياء الغالية التي يتفاخر بها الإنسان زمن السلم تحت قدميه في لحظات ، وعندما لا يصبح هناك شيء ذا قيمة يمكن أن يخاف عليه الإنسان ، عندئذ يكون الوطن هو الأب والأم والإبن والحبيبة ، هو كل شيء ، وأمامه تهون تلك التضحيات مهما كبر حجمها ويصبح لكل شيء معنى جديداً لم نعتاده من قبل .

تتناهى إلى سمعي الآن أغنية عبد الوهاب القديمة (في الليل لما خلّى) كم تهزني هذه الأغنية وتشعرنى ببلادنا وهي تجتاز الطريق وسط ظلمات دامسة ، إنها تحتاج إلى ملايين الشموع ، ألسنت محققاً في ذلك؟؟

نحياتي من أرض الميدان .

صديقك المقاتل

دخل العدو بطائراته إلى جانب المدفعية الثقيلة ، وزاد نشاط قواتنا الخاصة في العبور إلى مواقعه ، وكان القلق يسيطر علينا تماماً ، فأجلت ارسال الخطابات ، واستغرقت في عمليات نقل الجرحى والاسعاف ، وذات يوم جاءني مندوب البريد يحمل إلي مجموعة من الخطابات ألقيتها في حقيبة الإسعاف ، وفي الليل وبعد عناء يوم

طويل مرهق مددت جسدي على البطانية ورغم القصف المدوي إلا
أني كنت في شوق أن أسمع كلمات بعيدة عن السلاح وعن العدو،
وفضضت الرسالة في يدي وأخذت أقرأ:

المنصورة في ٨ أغسطس ١٩٦٩ .

صديقي المقاتل ..

وصلتني كلماتك الحادة والقاطعة كطلقات الرصاص .. شعرت
بدوخة وأنا أقرأ الرسالة ، وخجلت أن أرد عليك ، وتأخرت
لذلك في الرد ، ولكن لا مفر قلبي يدق بعنف وأنا أنخيلك في
الميدان ، إنك رجل دائما وأتمني أن تكون في أحسن الأحوال ،
تحياتي للإخوة جنود الميدان ورفاق السلاح .. أريد أن أقول لك
كلاما كثيرا ، لكن الكلمات تعجز وتصبح هزيلة عندما تصلك في
أرض لغتها الدم والبارود .
صديقك المخلص

ثم فضضت الرسالة الثانية .. كان الخطاب متسحا .. ولم أعهد
الخط المدون عليه من قبل ، كان بداخله صورة لمجموعة زهور
حمراء قرأت

ميدان القتال

أخي المقاتل

كل سنة وأنت طيب

النصر لمصر ..

أيها البطل العزيز الرابض على خط النار .

أخوك الصغير

طالب بالسنة الرابعة الابتدائية

احتفظت بهذه البطاقة وهداني تفكيري أن ألصقها على جدار الملجأ حتى لا يغيب عن ذهني ذلك الطالب الصغير الذي لا أعرفه .. ثم فضضت الرسالة الثالثة .. وكانت تحوي أكثر من مائة توقيع بأقلام مختلفة رصاص وحبر أزرق وأحمر .. واقتربت من ضوء السهارى وأخذت أقرأ في شغف ومتعة :

المطربة في ٧ أغسطس ١٩٦٩

صديقنا المقاتل

تحية حارة مخلصمة

من أحد المواقع الثورية بالجبهة الداخلية التي تؤمن بعدالة قضيتنا وحقنا في الحياة مها قدمنا في سبيل ذلك من تضحيات، ومن قلب كل شيخ وشاب وفتاة ، بإسمنا جميعا نحن الدارسين بمشروع محو الأمية، نشد على أيديكم ونطالبكم بالمزيد من الضربات للإستعمار ، دافعوا أيها الأبطال عن حق الشعب العربي في البقاء والحياة الكريمة ، متضامنين مع الشعوب الحرة التي تكافح الإستعمار - كوريا - كوبا - فيتنام التي دفنت رأس أمركا في التراب ، وإننا لنعاهد جنودنا على الجبهة أننا ستفتدى مصر بالروح والدم ، ويكل ما هو غال وعزيز.

مشروع محو الأمية بالعصافرة - المطربة

ما زالت الدنيا بخير طويت الرسالة بعناية .. القصف يزحف من مكان آخر.. جندي الحراسة الليلية أطفأ الترانزستور وقفز في الخندق مسرعا وهو يقول أن الطائرات المعادية تقصف قريبا منا .. قلت له تخندق وترقب ما يحدث .. ثم فضضت الخطاب الأخير .

المنصورة في ٩ أغسطس ١٩٦٩

صديقي

أحسست بالحجل عندما تسلمت رسالتك من ساعي البريد
خجل مبعثه عدم الرضا عن نفسي ، خجل لإحساسي أنني أبعد
عنك وأنت رغم هذا البعد تذكرني ، أنتم يا من تذودون عن
حياتنا ، كيف ننساكم وننصرف إلى مشاكل الحياة السطحية ،
هذا هو حال شبابنا اليوم يا أخي ، فستان بين ما عندكم من مخاطر
وبين ما نحن فيه من عدم الاكتراث ..

صديقك المخلص

طويت الرسائل جميعها وكومتها تحت طرف البطانية، ثم تمددت
وغطيت رأسي ببطانية أخرى، وقد سرح فكري في بلدتنا، وراح خيالي
يجوب شوارعها ، وقلبي يسألني متى تصفو الأيام وتعود لمصر
سماؤها الصافية المشرقة . فتسترد قرانا أبناءها الراقدين على رمال قناة
السويس ، لتأنس بهم وترتاح إلى جدرانها الطينية أرواحهم ،
وتفرح البنات والصبايا برجالهن الذين عادوا منتصرين، وظلّ خيالي
يمرح طليقا في كل الأماكن الحبيبة ، ويمسح بالحنين وجوه الأهل
والأصدقاء إلى أن رحت في النوم .



الخميس ١٩ سبتمبر ١٩٧٠

مرت الأيام بسرعة .. وكنت قد تعودت أن أقضي الوقت دون ملل ، كما عودتني الأيام أن أحرص على زملائي في الميدان ، وأن أحرص على الاتصال بعائلتي كلما حان الحين، وفي هذا اليوم كنت عائدا للتو من إجازتي الميدانية وقررت جريا على عادتي أن أكتب لوالدي لأطمئنه .

الجهة في ١٩/٩/١٩٧٠

والدي المحترم

وصلت بسلام إلى الجهة .. أرجو أن تطمئنوا .. أعرفكم أن إجازتي القادمة ستكون ابتداء من ١٤/١٠/١٩٧٠ عشرة أيام كاملة ، الجو هاديء كما يبدو ، حالتي النفسية جيدة ، ويساعدني على ذلك قراءة بعض الكتب التي أحملها معي . أرجو أن تفي بوعدهم معي لحل مشاكل البيت وأن تحضرهم القمح المطلوب وأن تحل مشاكل الصغار حتى أستريح .

ابنك

وفي يوم ٢٥/٩/١٩٧٠ كنت قد خرجت في إحدى العربات العسكرية لأحضار أدوية وتعليمات طبية للوحدة وكان القدر لي

بالمرصاد ، في الليل ونحن نسير بعربتنا على الطريق الموازي للقناة فوجئنا بطائرات العدو تسقط قنابلها علينا ، اصطدمت عربتنا بأحدى العربات التي كانت تفر مذعورة وأصبت في عظامي بكسر أرقطني في صندوق العربة ، دارت برأسي صور عديدة ، كنت أمشي للموت ، وكانت صورة أُمِّي تجثم على صدري لا تفارقني ، جاءت عربة الإسعاف لتقلنا إلى مستشفى الإسماعيلية الميداني ، وهناك أفقت بعد أن تحسست إصابتي وتأكدت أنها غير مميتة ومن هناك كتبت رسائل من جديد ..

المستشفى الميداني بالإسماعيلية في ١٩٧٠/٩/٢٧ .

صديقي المقاتل

طبعاً علمت أنني قد أصبت في حادث العربة مساء ٧/٤ مع من أصيبوا نتيجة غارات العدو الليلية، وكانت إصابتي بعض الجروح السطحية وكسر بعظمة الحوض، ولذلك فقد تقرر نقلي إلى مستشفى « القصاصين » ومنها إلى القاهرة .

أخي كان في العربة شنطة تطهير جماعية كنت قد استلمتها للوحدة و (وابور) الجاز الخاص بي ومجموعة من الكتب الخاصة بالإسعاف أرجو أن تبحثوا عن هذه الأشياء وأن تحفظوها ، أخوك المقاتل

وبعد أن تماثلت للشفاء جاءتني تلك الرسالة القصيرة

الجبهة في ١٩٧٠/١٠/٧

صديقنا المقاتل

تمنياتنا الطيبة لك بالشفاء ، وصلتنا رسالتك ، بحثنا عن

حاجتكم ومعداتك وحفظناها لك ، أما المعدات الأخرى مثل الشاي والسكر والملح وظروف الخطابات ومواس الحلاقة فقد أخذناها للاستعمال وإنشاء الله بعد خروجك من المستشفى. سنعوضك عنها .

المقاتلون

كنت قد نقلت إلى مستشفى الدمرداش للمزيد من الراحة .. وجاءني بعض الزملاء أثناء إجازتهم الميدانية وأبلغوني أن مهماتي قد فقدت .. فأرسلت هذا المكتوب .

مستشفى الدمرداش في ١١/١٠/١٩٧٠

الأصدقاء الأعزاء

نقلت إلى مستشفى الدمرداش للمزيد من الراحة ، وصلني أحد الجنود من الوحدة وأخبرني أن البطاطين قد فقدت ، هل هذا معقول ، وأيضا علمت أن (وابور) الجاز قد سُرق هو الآخر ، أهذه مكافأتي .

شكراً لكم ،

زميلكم المقاتل

وكان الرد عجيباً .

الجبهة في ١٥/١٠/١٩٧٠

صديقنا المقاتل

تمنياتنا لك بالشفاء العاجل

مرسل لك هذا الخطاب حتى لا تسأل عن مرتبك هذا الشهر
فبعد حسابات عديدة كان الصافي لك هو صفر أبعثه إليك في هذا
الخطاب وذلك ليس بيدي وربنا يعدها ،

عريف الماليات

كنت قد قررت بعد ذلك أن أكف عن الكتابة للوحدة . لكنني
كنت قد تماثلت للشفاء تماماً ، وبدأت رحلة العودة ، حملت
حقيقتي وركبت القطار الحربي إلى الجبهة، وجلست بالقرب من
النافذة ثم القيت برأسي على حاجز الكرسي الخشبي العتيق ومع
ضربات عجلات القطار الرتيبة على شريط السكة الحديدية، دارت
في مخيلتي تلك الصورة ليلة أن وطئت قدماي أرض الجبهة لأول
مرة ، هل ستكون الجبهة قد تغيرت كثيرا ، كيف حال الأصدقاء
والزملاء ، من يا ترى قد أصيب ، ومن يا ترى قد واره التراب ،
وداخل حقيقتي كنت قد اطمأنت على أنني قد حشوتها بالأوراق
والخطابات الجديدة ، وعلا الضجيج في عربة القطار حينما صاح
بائع الكتب والرسائل معلنا عن رسائل المحبين والأصدقاء ،
وسارعت الأيدي تطلب الرسائل ، وغمرني الحنين وعصف الشوق
بقلمي ، ولكن القطار الحربي كان ينهب الطريق مسرعاً إلى الجبهة .

الأحد ١٦ أغسطس ١٩٧٠

في أول الأمر كنا نخجل من زملائنا المقاتلين في الجبهة عندما كانوا يسألوننا عن تسليحنا ، كنا نقول لهم ونحن نعرف مسبقا باستهزائهم .

— مدفعية ٢٥ رطل

فقد كان هذا السلاح من مدفعية الحرب العالمية الثانية ، قديم ، بدائي ، قصير المدى ، صعب التشغيل ، وهناك الآن أسلحة أكثر خطرا وزئيرا منه متفرقة على امتداد جبهتنا ، وكنا نستطيع أن نميز صوت مدافعنا من أصوات المدافع العديدة الممتدة من ورائنا على طول خطوط القتال ، وكان لا بد لكتيبتنا أن تأخذ مكانها بالقرب من القناة حتى يكون لمدافعها العتيقة المدى المؤثر في مواقع العدو الممتدة أمامنا .

ومرت الأيام ، ورأينا أن كتيبتنا تحتل موقعا من أهم المواقع الدفاعية في منطقتنا، وأن علينا بمدافعنا القديمة أن نكون رجالا وأن نفذ تعليمات القيادة بأن نصمد في أماكننا مهما كانت ظروف الاشتباك مع العدو ، فقد كانت القيادة تعلم بالطبع مدى الفارق الكبير في التسليح بيننا وبين مواقع العدو المواجهة لنا .

وكانت منطقة « الكاب » من المناطق التي تقع في دائرة

دفاعاتنا ، وكم من مرة حاول العدو العبور من هذه المنطقة وأغرقته مدفعيتنا القديمة في قاع القناة .

و ذات ليلة وبعد أن كشفت طائرات العدو غاراتها الوحشية على المنطقة .. وركزت نيرانا كثيفة على مواقعنا وحول كل ملجأ من ملاجئ الأفراد ، حتى أصبح من الصعب أن يفكر الإنسان في الحياة تحت كثافة نيران العدو ، ورغم ذلك فحينما أراد العدو في تلك الليلة أن يعبر بقواته من المنطقة التي تحميها مدافعنا القديمة ، دقت أجراس التليفون الميداني وتناولت الأيدي بثبات سماعات التليفون .. وجاء صوت جندي الاستطلاع يقول :

• - العدو يعبر من منطقة الكاب .

وقتها اختفت كل المواجهات ، وفي لحظة كان هناك صوت قائد الكتيبة يأمر الرجال من خلف المدافع :

- أضربوا حتى آخر طلقة من أجل زملائكم على القناة ..

إنجبت الفوهات على الفور صوب مواقع العدو وانطلقت منها القذائف متتالية عنيفة ، واحتل الرجال الآخرون مواقعهم في لمح البصر في الخنادق وفي الحفر التي صنعتها قنابل الطائرات المعادية ، يصبون من بنادقهم ومن رشاشاتهم وابلا من الرصاص ، وصوت القاذب ما زال يهتف من التليفون الميداني :

- اضربوا حتى آخر طلقة .

كانت طائرات العدو تلي على مواقعنا شحنات وحشية من القنابل، وتضررنا بالصواريخ المتتالية دون توقف .. أصيب عدد من مدافعنا .. واستشهد عدد من رجالها ، وأصاب اليأس عدداً آخر من أفراد المدافع الباقية، وهما بالتراجع .. صاح قائدهم :

- من يتراجع سوف أضربه بالنار فوراً .

عادوا إلى مواقعهم واستبسلوا مع بقية زملائهم .. ولكن الطائرات المعادية لا تكف عن إلقاء حمولتها المميتة على رؤوسنا حتى بلغت القلوب الحناجر والقائد ما زال يصيح :
- اضربوا .. اضربوا حتى آخر طلقة

إنتابتنا روح من الجنون .. لم يعد يهمنا شيء .. نسينا الدنيا كلها، ولم يصبح أماننا سوى العدو الذي يريد قهرنا وإختراق مواقعنا .. كان الجنود ينهزون فرصة انطلاق طائرات العدو وهي تحوم لتعاود الضرب من جديد .. ليعادوا حشوا مدافعهم بالقذائف، ويطلقونها قبل أن تعود الطائرات .

لقد أصبحنا نحن والمركة جسدا واحدا ، ولم تنتبه إلى أن مدفعيتنا القديمة أغرقت زوارق العدو ، وأن جحافلها كانت قد فرت عن آخرها .. لم تنتبه لذلك إلا بعد أن توقفت الطائرات عن الظهور فوق رؤوسنا .. ولم نتم حتى الصباح .. كانت المدافع ما زالت مشرّبة الأعناق ، وحضر القادة مع طلوع أول ضوء ، التقوا بجنود مجموعة من مدفعيتنا ، كانت عيونهم حمراء وما زالوا يلهثون من التعب ، ربت القائد على أكتافهم وقبلهم، ووضع على صدر كل منهم شارة البطولة ، وكنا نحن حيناً نركب أو نتجول في المنطقة ويسألنا أحد من أي سلاح أنتم كنا نتحاشى الإجابة على هذا السؤال خوفاً من السخرية ولكننا الآن نقول باعتزاز:

- مدفعية ٢٥ رطل ..

فتحنا الرجال الذين جعلناها تساوي وتواجه أعنى الأسلحة، ويسالنا وإيماننا صارت هذه المدافع القديمة سلاحاً ماضياً فعلاً ..

وأصبح زملاؤنا على خط النار عندما يعرفون سلاحنا هذا يقولون :
- رجال حقيقيون

كنا فخورين حقا .. وكان الجنود سعداء للدرجة غير عادية ،
وكان منظرهم مؤثرا للغاية وهم ينظفون مدافعهم القديمة ويلمعونها،
ويضبطون معداتها استعدادا للقتال قادم لا بد منه .. وأخذوا يرتون
على فوهاتها بحنان وحذب وكأنما قد أصبح لهذه المعدات الفولاذية
قلب يحس ويعلم ويستجيب لصاحب الحق الذي يبحث عن حقه
ولا يخذله .

وفجأة وبعد ستة عشر شهرا من القتال المتواصل .. وكنا قد
تعودنا الحياة تحت اللهب المستعر، وألفنا زئير المدافع ودوى
القذائف ، جاءنا الأمر بالتحرك والعودة إلى الخلف .

وفي الليل تحركت العربات تجر المدافع ، وارتدينا نحن معاطفنا
الصوفية اتقاء لبرد الليل القارس ، كنا نشعر ببعض الحزن ، ولكنه
سرعان ما أصبح حزنا مقبضا ثقيلًا، عندما علمنا أن مدافعنا القديمة
الحبيبة سوف تخرج من الخدمة بعد أن أمكن تسليحنا بسلاح جديد
متقدم .. كانت لحظات اختلطت فيها مشاعرنا وقبلنا تلك المدافع
قبل أن تغيب عن عيوننا كما يقبل الأخ أخاه .. وملأت الدموع
عيون الكثير منا، وهي تختفي في ظلمة الليل خلف العربات
العسكرية .. ألم تحم كرامتنا ؟ .. ألم تستجب لنجوانا ؟ .. ألم تعطنا
خير ما لديها ؟ .. يجب أن يكون الانسان وفيا حتى للصخر ليكون
جديرا بالحياة .

وقبل أن نغادر الموقع، وقفنا لحظات من الحزن العميق والصمت
على أرواح شهدائنا التي فاضت في هذا المكان، وتذكرنا جرحانا

الراقدين الآن تحت السلاح .. وقلنا دون أن ننطق .. إننا دائما
سنكون رجالا كما كانوا هم تماما .



الدكتور أحمد حسيني

- استشهد في جبهة القناة عام 1972 أثناء ما سمي بحرب الاستنزاف.
- ولد عام 1941، بقرية ميت جراح بمحافظة الدقهلية.
- تخرج من كلية الطب البيطري عام 1967.
- جُنّد بالقوات المسلحة عام 1968، وكان يتولى الشؤون الطبية في الكتيبة التي خدم بها في الجيش المصري على جبهة القناة حتى استشهاده.
- افتتح في قريته «سندوب» الملاصقة لمدينة المنصورة بالدلتا، مدرسة لمحو أمية الفلاحين والعمال والنساء، وكان التدريس يتم في هذه المدرسة بواسطة الدارسين أنفسهم بعد أن درّبهم وأعدّ لهم الكتب والمناهج الدراسية بنفسه.
- أصدر لهم، وبمعاونتهم مجلة "حائط" ظلت تصدر لمدة عشر سنوات متصلة كل 15 يوما، ما بين 1958، 1968، وفي آخر مراحلها كان طولها 20 مترا، وارتفاعها أربعة أمتار.
- صدرت له مجموعة كتب، منها «الكلمات والبارود» عن «أدب الجماهير» حيث تولّى أصدقائه وتلاميذه تحمل نفقات نشر الكتاب و«الفلاحون والعمل السياسي» و«محو الأمية عمل لا بدّ منه» ومنعت الرقابة صدور كتابه «مذكرات جندي مصري» عام 1972.
- كان مؤمنا بالاشتراكية العلمية، ومناضلا عنيدا من أجل تطبيقها لإلغاء استغلال الانسان لأخيه الانسان.
- كان مجندا في مكان آمن بالقاهرة ولكنه طلب بنفسه الذهاب إلى الجبهة.
- له مقالات كثيرة في الثقافة والفن ومحو الأمية نشر أغلبها في مجلة «الطلیعة».

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٨/١٨٧١

طبع بدار المدينة المنورة

١١٤ شارع مجلس الشعب ت : ٣٩٠١٠٣٠

Bibliotheca Alexandrina



0601018

